مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الثالث ـ المجلد التاسع والثلاثون

بغـــــداد

المحرم الحرام ١٤٠٩هـ ـ ايلول ١٩٨٨م

طارق بن زياد

فاتح شطر الأندلس

اللواء الركن محمود شيت خطاب
عضو المجمع

- ٢ -

فتح طُلَيْطُلَة (١) :

سار طارق بمعظم جنوده (٢) إلى كورة جَيَّان (٣) في طريقه إلى عاصمة القُوط : طُلَيْطُلَة (Tolodo) . وقد اتّبع في طريقه الطريق الروماني القديم الذي يمرّ بمدينة جَيَّان (Jaen) والذي يدعى : طريق هانيبال (٤) (Ani gal) ، مخترقاً هضاب الأندلس وجبال سيرا مورينا (جبل الشارتل) ، وكان القُوط قد فرّوا من طليطلة نحو الشمال بأموالهم وآثار قديسيهم ، ولم يبق من سكّانها غير عدد قليل من يهود ونصارى . وفتح طارق المدينة ، وأبقى على من بقى من سكّانها . وترك لأهلها عدّة كنائس ، وترك لأحبارها

---

(١) طليطلة : مدينة كبيرة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة ، وتقع على شاطىء نهر تاجة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٦/٦) .

(٢) نفح الطيب (٢٤٤/١) .

(٣) جيان : مدينة لها كورة واسعة بالاندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٣٠/٢) .

(٤) يذكر المقرى أن طارقاً سار الى طليطلة في الطريق المار بجيان ، اى انه اتبع طريق هانيبال الروماني . لانه كان طريقاً معموراً في ذلك الوقت ، وفيه تمر اليوم سكة حديد الاندلس . انظر نفح الطيب (١٦٧/١) و Saavedra. op. Cit. 79

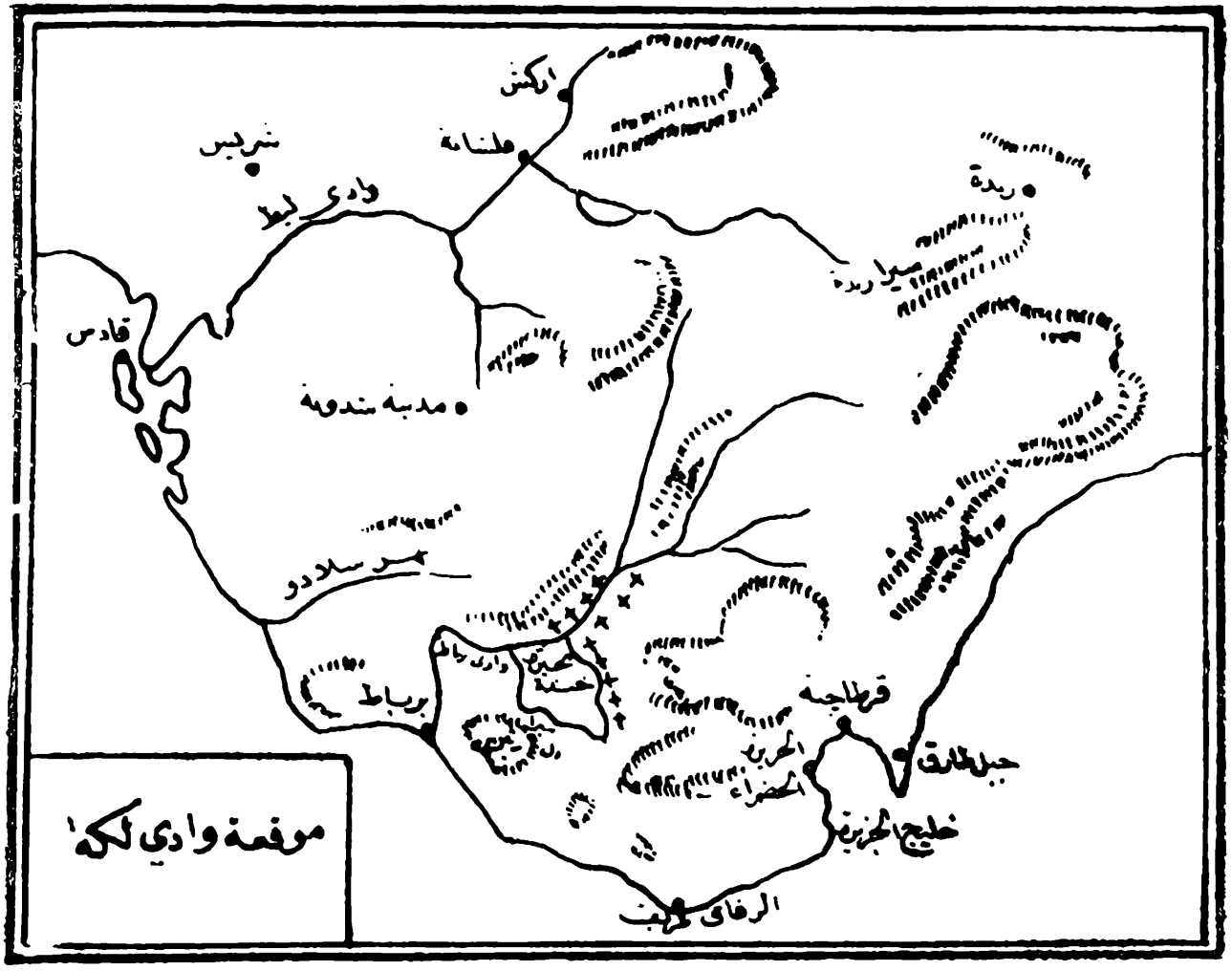
اركش
هلسانة
شربس
وادي لبط
ريدة
صيرا ريدة
قادس
مدينة سندونة
سلادو
وادي رملة
تحين
حسنة
رباط
قرطاجنة
جبل طارق
الحرية
الحضراء
خليج الجزيرة
الرفاق
موقعة وادي لكه

حريّة إقامة الشّعائر الدينيّة ، وأباح للنصارى القوط والرومان اتّباع شرائعهم وتقاليدهم ، واختار لحكمها وإدارتها أوباس مطرانها السابق وأخو الملك وتيزا (٥) .

وسار طارق من طليطلة لملاحقة الهاربين ، مخلّفاً وراءه حامية من المسلمين للدفاع عن المدينة . واتّخذ طريق وادي الحجارة ، فعبر السلسلة الجبلية المسماة : (Cerro de san juan del viso) عند ممر سمّي على اسمه بفج طارق (٦) . وعندئذ وصل إلى مدينة خلف الجبل تسمى : مدينة المائدة (٧) ، وهذه المدينة هي قلعة هنارس (phcala Hanares) التي تقع شمال شرقي مدينة مَدْريد (٨) . واسم مدينة المائدة ، مشتق من مائدة عثر عليها طارق . وهي كما يُروى تعود الى سليمان بن داود عليهما السّلام (٩) . ولكنّ ابن حيّان ينكر هذا الادّعاء ، ويذكر أنّ هذه المائدة صنعت من الذّهب والفضّة ومن معادن نفيسة أخرى ، بتبرعات ومساهمة أغنياء القوط لكنيسة طليطلة . واستُخدمت من قبل القساوسة لحمل الأناجيل أيام الأعياد ، وزينة توضع فوق مذابح الكنيسة (١٠) . والاحتمال الغالب أنّها

---

(٥) دولة الاسلام بالأندلس (١/٥٠) ، وانظر التاريخ الاندلسي (٦٥) .

(٦) من المحتمل أن هذا المكان يقع بالقرب من (Buitrago) (Bibtrak) ، وهي المدينة التي تشرف على الممر الجبلي الذى يصل بـ(قشتالة الجديدة وقشتالة القديمة) . انظر : Gayangos. Vol. I. P. 533

(٧) ابن القوطية (٩) واخبار مجموعة (١٤) وفتح الأندلس (٩) وابن الأثير (٤/٥٦٤) والبيان المغرب (٢/١٢) ونفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٦٤–٢٦٥) والرسالة الشريفية (١٩١) .

(٨) Saavedra. P. 79.

(٩) فتوح مصر والمغرب (٢٠٧) والادريسي (١٨٧ – ١٨٩) واخبار مجموعة (١٥) وفتح الأندلس (٩) وابن الاثير (٤/٥٦٤) والبيان المغرب (٢/١٢) والنويري (٢٢/٢٨) .

(١٠) نفح الطيب برواية ابن حيان (١/٢٧٢) .

كانت مذبحاً لكنيسة طيلطلة أكثر من كونها مائدة حقيقية ، حُملت إلى هذا المكان القصّي الحصين من قِبَل الهاربين من القساوسة ورجال الدين المسيحي (١١) ، وكان أسقف طليطلة نفسه سَنْدَرِد (Sindered) من بين الذين تمكنوا من الهرب في أثناء الفتح ، ونجح فعلاً في الوصول إلى إيطاليا (١٢) . وبعد افتتاح قعلة هنارس غنم طارق هذه المائدة مع التّحف الثّمينة الأخرى (١٣) .

---

(١١) قارن : فجر الاندلس (٧٨ ــ ٧٩) .

(١٢) Ghr. 754. P. 147 (no. 35).

(١٣) يذهب معظم المؤرخين المسلمين الى أن طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة مع غيرها من التحف في مدينة المائدة ، وهذه هي في داخل قلعة هنارس ، وهى بالطبع ليست مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ــ ان كانت لسليمان مائدة ــ ، وهى ليست كذلك بمائدة أصلا ، اذ لا يعقل أن يهتم القوط ولا غيرهم بصناعة مائدة بمثل هذه الفخامة ، ولكنها على الغالب مذبح الكنيسة الجاري في طليطلة ، اذ لم تكن في قلعة هنارس اذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود مثل هذا المذبح الفخم فيها . ويفهم ذلك من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها : « وهذه المائدة المنوه عنها المنسوبة الى سليمان النبي عليه السلام ، لم تكن له فيما يزعم رواة العجم ، وانما أصلها أن العجم في أيام ملكهم ، كان أهل الحسبة منهم ، اذا مات أحدهم أوصى بمالٍ للكنائس ، فاذا اجتمع عندهم ذلك المال ، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة ، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الاناجيل اذا أبرزت أيام المناسك ، ويصفونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها ، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذا السبيل » .... وبقية العبارة تدل صراحة على أن تلك المائدة انما كانت لمذبح كنيسة طليطلة ونقلت المائدة الى قلعة هنارس ، فيما يبدو ، لتهريبها من المسلمين ، ولوضعها في مكان حصين، كانوا يظنون أن المسلمين يصعب عليهم الوصول اليه بسهولة ويسر . والمصادر الاسلامية تصف هذه المائدة بأنها : « كانت من زبرجدة خضراء ، حافاتها وأرجلها منها » ، والغالب انهم كانوا يريدون انها كانت محلاة بالزبرجد الاخضر ، انظر فتوح مصر والمغرب (٢٠٧) واخبار مجموعة (١٧ و ١٩) والبيان المغرب (١٤/٤) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٢٧٢/١) وفتح الاندلس (٩) .

وكان الصّيف قد انقضى ، وأقبل شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ثلاث وتسعين الهجرية (تشرين الأول ٧١١ م) ومعه برد الخريف ، ففضّل طارق وأصحابه العودة إلى طليطلة لكي يقضوا الشتاء فيها (١٤) ، وكانت الغنائم قد أثقلت جيش طارق إلى حدّ عظيم .

ومع هذا ، فهناك روايات أخرى ، تشير إلى أنّه استمر في فتوحه ، فوصل إلى جِلِّيْقِيَّة (١٥) (Golicia) وأَسْتُرْقَة (١٦) (Astorga) وما يجاورهما من مناطق (١٧) ، الأمر الذي يصعب تصديقه ، خاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار ، إطلالة الشتاء ، ووعورة المنطقة(١٨) ، وتغلغل طارق عميقاً في أنحاء الأندلس . بشكل لا يتناسب مع مالديه من قوات مقاتلة (١٩). وفي ذلك يقول ابن حَيَّان ، فيما ينقله المَقَّرى في نفح الطيب : « ومضى خلف مَن فرّ من أهل طُلَيْطُلَة ، فسلك إلى وادي الحِجَارة (Guadala are) ثم استقبل الجبل فقطعه في فجّ سمّي به بعد . فبلغ مدينة المائدة خلف الجبل ،.. ثمّ مضى إلى المدينة التي تحصنوا بها خلف الجبل ،.... ، فأصاب بها حُلِيّاً ومالا ، ورجع ولم يتجاوزها إلى طُلَيْطُلَة . سنة ثلاث وتسعين . وقيل : إنّه لم يرجع . بل اقتحم أرض جِلِّيقِيَّة واخترقها حتى انتهى إلى مدينة

(١٤) اخبار مجموعة (١٥) وابن الاثير (٥٦٤/٤) والبيان المغرب (١٢/٢) والنويري (١٢/٢٨) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٢٥٦/١) والرسالة الشريفية (٢٩٢) .

(١٥) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الاندلس في اقصاه من جهة الغرب . انظر معجم البلدان (٨/٣).

(١٦) استرقة : بلد بناحية جليقية قرب ساحل المحيط وقرب مدينة ليون ، انظر قادة فتح المغرب (٢٦٨/١) .

(١٧) ابن القوطية (٩) وابن الاثير (٥٦٤/٤) والرسالة الشريفية (١٦٢) والنويري (٢٨/٢٢) ونفح الطيب (٢٦٢/١) .

(١٨) الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (١٧٤) .

(١٩) قادة فتح المغرب العربي (٢٥١/١) .

أسْتُرْقَة ، فدوّخ الجبهة ، وانصرف إلى طُلَيْطُلَة ، والله أعلم » (٢٠) . عاد من مدينة المائدة . لأنّ الشتاء كان قد اقترب وكان الإجهاد قد نال من المسلمين ، وثقلوا بالغنائم . والأرجح أنّه قام بحملاته نحو هذين البلدين القاصيين بعد ذلك بزمن ليس بالقصير (٢١) . وقد استغرقت عمليات الفتح التي قام بها طارق ، قبل لقائه بموسى بن نُصَير وإنجازاته أقلّ من سنة ، ربما بعدّة شهور (٢٢) .

بقي عليّ أن اشير إلى تعاون المسلمين ويهود الأندلس ، فهناك إشارات كثيرة في المصادر الاسلامية إلى هذا التّعاون في أثناء فتح الأندلس ، وتروى هذه المصادر أنّ المسلمين كرروا ما فعلوه في قرطبة وطليطلة على بقيّة المدن الأندلسية المفتوحة الأخرى ، فحين يتمّ لهم فتح مدينة من المدن ، يعمدون إلى ضمّ سكّانها من يهود إلى المسلمين المدافعين عنها . حاميةً لها ، بعد حركة المسلمين إلى فتح جديد (٢٣) .

ومن الناحية الأخرى ، فانّ المصادر اللاتينيّة لا تشير إلى أيّ نوع من تعاون المسلمين مع يهود الأندلس ، وبصورة خاصة حولية سنة (٧٥٤ م) وحولية بلدة قرطبة ، وحولية الفونسو الثالث . ولكن لذريق الطُليطليّ (Rodericus Toletanus. Roderic of Toledo) ولوقادى توى (Luc asde Tuy) (Lucas of Tuy) — قد ذكر بأنّ يهود الأندلس ساعدوا المسلمين

(٢٠) نفح الطيب (١/٢٦٤ — ٢٦٥) ؛ وانظر الروض المعطار (١٧٩) .
(٢١) فجر الاندلس (٨٠) .
(٢٢) التاريخ الاندلسي (٦٦) .
(٢٣) الرازي نشر جاينجوس (٧٢) والاحاطة برواية ابن القوطية (١/١٠١) وأخبار مجموعة (١٢ و ١٤ و ١٦) وابن الأثير (٤/٥٦٤) والبيان المغرب (٢/١٢) ونفح الطيب برواية الرازي (١/٢٦٣ — ٢٦٤) .

في الفتح (٢٤) ولا يمكن تجاهل روايات المصادر الاسلامية إلى هذا التعاون ، ومع هذا فانّه من غير الممكن تجاهل أنّ قصّة هذا التعاون قد بولغ فيها(٢٥) كثيراً،ولم يُفهم القصد منها تماماً كما ينبغي . ومن المحتمل أنّ يهود الأندلس حاولوا مساعدة المسلمين حينما أصبح هؤلاء فعلاً في الأندلس منتصرين ، وذلك نتيجة للاضطهاد الذي لاقاه يهود الأندلس على يد ملوك القوط (٢٦) ، ولكن من المستحيل أن يكون هناك أيّ اتفاق سابق أو مؤامرة ، كما يحاول أن يبرهن بعض المؤرخين الاسبان (٢٧) ، بين المسلمين ويهود الأندلس لتسليم البلاد إلى المسلمين ، إذ لم يكن بمقدورهم أن يفعلوا ذلك ، لضعفهم وتفككهم وانهيار معنوياتهم وشعورهم بمركب النقص ، فهم كانوا بحاجة إلى مساعدتهم وإلى مَن يساعدهم . ولم يكونوا قادرين على مساعدة أحد بالقوّة، لافتقارهم إلى القوّة . ومن المفيد في هذا المجال ، أن نلاحظ ، أنّ هذه الاتّهامات قد رفضت من قبل مؤرخي يهود ، باعتبارها أساطير معادية للسّامية (Anti — Semitic Logends) (٢٨) .

---

(٢٤)
Toderic of Toledo (d. 1247 A. D.), De rebus Hispaniae, 111, 23-24 (Schott, lisoaniae illustratae, Fronkfurt aln, 1603, 111, 67-68); Lucas of Tuy, Chronicon mundi, 111, Era 748 (Schott, op, cit., iv, 70) in Katz, The Jews in the Visigothic and Frnakish..., pp. 116-117.

(٢٥) الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (١٧٢) .

(٢٦) راجع الفصل الاول من كتاب : الفتح والاستقرار العربي والاسلامي في شمال افريقيا والاندلس ، عن اضطهاد القوط لليهود .

(٢٧)
R. Anador de los Rios, Historia Social, Polotica y religiosa de los. judios de Espana y Portugal, madnd, 187576, Vol. I.P. 107, cit. Ashtor. of. cil., Vol. 1.P. 22; A. Ballesteros y Baratta, Historia de Espaia: Su influencia an La historia Universla, Vol. 11, p. 107.

Bare, op. cit., vol. 1. p. 23-p Ashtor. op. Cit., Vol. p. 22

والواقع هو أنّ يهود الأندلس ، قبل الفتح الاسلامي للأندلس ، كانوا مضطهدين من ملوك القوط ومن القوط أنفسهم ، فلما انتصر المسلمون على القوط ، عرض يهود خدماتهم على المسلمين . الذين رفعوا عنهم الظلم وعاملوهم بالحسنى معاملة إنسانية ، كدأبهم مع المظلومين بعامة وأهل الكتاب منهم بخاصة ، فعاونوا جاليات المدن الأندلسية المفتوحة من المسلمين . بانذارهم المبكرّ بنوايا القوط وتحرّكاتهم ، والمسلمون وحدهم يدافعون عن المدن المفتوحة ، بالاستعانة بالعيون والأرصاد والجواسيس من يهود الأندلس ، باعتبارهم من أهل تلك المدن ، وأعرف الناس بمداخلها ومخارجها ومواطن ضعفها وقوّتها ، ولم يتطرّق مصدر من المصادر الاسلامية إلىأنّ يهود الأندلس دافعوا عن المدن المفتوحة مع المسلمين بالسّلاح . ولم تتطرّق تلك المصادر إلى أنّ يهود الأندلس قاتلوا القوط مع المسلمين .

لقد عاون يهود الأندلس المسلمين الفاتحين ، لأنّ المسلمين كانوا أعداء القوط ، وعدوّ عدوي صديقي ، كما يقول المثل العربيّ المشهور . ولكن هذا السبب ليس كافياً بالنسبة للعقلية اليهودية المعروفة . والسبب المهم هو أنّ المسلمين هم المنتصرون ، والقوط هم المغلوبون . فهم دائماً مع المنتصر على المغلوب ومع القوي على الضعيف ، لأنّهم يستفيدون من المنتصر لحمايتهم وتوقّع الانتفاع منه في مصالحهم المادية والمعنوية . ثم إنّ المسلمين الفاتحين أصبحت بيدهم مقاليد الأمور في المدن المفتوحة ، وهم حكام الأندلس اليوم وغدا ، أما القوط ، فقد كانوا حكام الأمس ، ولا فائدة ترتجي منهم اليوم أو غدا ، ويهود مع مَن بيده مقاليد الأمور ، الحاكم الذي يستطيع أن يفيد ويضر ، لا مع مَن لا يستطيع أن يفيد ويضر ، وليس له من الأمر أيّ شيء . وقد ذاع عدل المسلمين ومعاملتهم الناس بالحسنى ، بينما جرّب يهود الأندلس القوطَ ، فلم يجدوا منهم إلاّ الظلم والاضطهاد ، فعاونوا أصحاب العدل على أصحاب الظلم ، وأصحاب الرحمة على أصحاب الاضطهاد .

ولكن يهود الأندلس كانوا مع المسلمين في الأندلس ، ماداموا أقوياء متّحدين ، فلما ضعفوا وتفرّقوا ، وأصبحوا دويلات بعد أن كانوا دولة واحدة ، وقوي الاسبان واشتد ساعدهم ، وأخذوا يعملون على استعادة بلادهم من المسلمين بالسياسة والحيلة والتآمر تارة ، وبالقوة تارة أخرى ، أصبح يهود الأندلس مع الأسبان على المسلمين ، فلما استولى الاسبانيون على إسبانيا ، وانحسر حكم المسلمين من الأندلس ، لقي يهود إسبانيا من الاسبان جزاء سِنِمّار ، واضطُهد مَن بقي منهم في إسبانيا اضطهاداً ذكّرهم باضطهاد القوط لهم قبل الفتح الاسلاميّ ، وحينذاك فقط ، قال قائلهم : « كانت أسعد أيام يهود الأندلس ، طيلة تاريخهم في الأندلس ، هي أيام الحكم الاسلامي في الأندلس ، ففي تلك الأيام وحدها عرفنا الحرية والعدل والرخاء والتَسامح ، ولم نكن نعرف هذه القيم قبل المسلمين ، ولا عرفناها بعدهم ! »

إنّ يهود الأندلس ، كبقية يهود العالم ، في كلّ زمان ومكان ، يعملون من أجل مصالحهم فقط ، لا من أجل أشخاصٍ معيّنين أو أمم معيّنة أو مبادئ وقيم معيّنة ، فهم يعاونون مصالحهم ويتعاونون مع مصالحهم ، وهم يعينون من ينفعهم في مصالحهم ويتعاونون معه ، فمصلحتهم أولاً وقبل كلّ شيءٍ ، والتعاون والمعاونة من أجل تلك المصالح الذاتية .

ذلك هو مظهر تعاونهم سرّاً ، في نقل الأخبار ونشر الاشاعات وخلق الفتن والتجسّس ، لهم الغُنْم دوماً دون الغُرْم ، والمنفعة دون الضرر ، ولهم مصالحهم وعلى غيرهم تحمّل المسؤولية .

٧ ـ فتوح طارق بعد عبور موسى بن نصَيْر الى الأندلس

١ . بين موسى وطارق :

كان ردّ الفعل لانتصار حملة طارق عظيماً في شمالي إفريقيّة ، فبعد سماعهم أخبار النصر الذي أحرزه طارق على لذريق ، اتّجه البربر نحو الأندلس من كلّ صوب ، واجتازوا المضيق بما وقعت عليه أيديهم من قوارب ومراكب ، وبعد وصولهم استوطنوا المناطق السّهلة من البلاد التي هجرها سكانها الأصليون ، الذين اضطروا إلى اللجوء نحو القلاع والحصون ، أو هربوا إلى المناطق الجبليّة (٢٩) .

وبعد أن فتح المسلمون عاصمة البلاد وكسروا قوات لذريق وقضوا على كلّ أمل للقوط في العودة إلى الحكم ، تقدّم أبناء غيطشة إلى طارق يطلبون إليه الوفاء لهم بما وعدهم به من الكرامة وحسن الجزاء ، ويبدو أنهم كانوا يطمعون أن ينسحب المسلمون من الأندلس ليعود أبناء غيطشة إلى الحكم من جديد ، فلما تبين لهم أنّ طارقاً ومَن معه جاءوا ليبقوا لا ليرحلوا ، وأنهم جاءوا لنشر الاسلام بالدعوة إلى الله ، سُقط في أيديهم ، ووجدوا أن لا مندوحة لهم عن القناعة بما يمنحهم المسلمون إيّاه ، فمنحهم طارق ضياع أبيهم ـ وكان عددها كبيرا ـ وأمضاها لهم . ويبدو انّهم طمعوا بالمزيد ، فلم يجبهم طارق إلى ما سألوا ، لأن ذلك يخالف ما وعدهم به ، وهو منحهم ضياع أبيهم بلا زيادة ولا نقصـــان ، فاستأذنوا طارقاً في المسير إلى موسى بن نُصير في إفريقيّة ، وسألوه الكتابة إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهد ، ففعل . ولما بلغوا موسى ، أقرّ طارقاً على مافعل . ويبدو

(٢٩) نفح الطيب برواية الرازي (١/٢٥٩) .

أنّهم ألحوا على موسى بالزيادة ، فأحالهم على الخليفة نفسه (٣٠) ، فأقرّ عهد موسى وطارق (٣١) .

وكان طارق على صلة بقائده موسى بن نُصير : يفتح الفتوحات باسمه وبتعليماته وأوامره ووصاياه ، ويخبره ، عن كلّ شيءٍ أوّلاً بأوّل منذ بداية الفتح ، ويستشيره بكل ما يحتاج إلى المشورة ، « وبلغ الخبر موسى بكتاب طارق إليه ، فكتب به موسى إلى الوليد » (٣٢) . وبعد سنة من عبور طارق وتفرّق جيشه وتوزيعه على المناطق والمدن التي فُتحت ، خاف طارق أن يُغلب وأن يستغلّ القوط قلّة جيشه ، فأرسل إلى موسى يستنجده (٣٣) ، والأمثلة على اتصّال طارق بموسى في المصادر الاسلاميّة كثيرة جداً ، مما يدلّ على أن الانسجام والتعاون والوفاق كان سائداً بين موسى وطارق .

وبلغت فتوحات طارق أسماع موسى ، فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره . فقد أمره موسى ألاّ يتعدّى قرطبة على قول ، أو موضع هزيمة لذريق في وادي لَكّة على قول(٣٤) . فسارع موسى إلى عبور المجاز ودخول الأندلس .

وهناك مَنْ ينصّ ، على أنّ عبور موسى بن نُصَيْر إلى الأندلس كان بسبب استدعاء طارق إيّاه(٣٥) ، فقد كتب طارق إلى موسى : « إنّ الأمم

(٣٠) نفح الطيب برواية الرازي (١/١٦٧ ـ ١٦٨) .
(٣١) فجر الاندلس (٨٣) .
(٣٢) تاريخ الاندلس (٤٨) وابن خلدون (٤/٢٥٤) .
(٣٣) الامامة والسياسة (٢/٧٤ ـ ٧٥) وفجر الاندلس (٨٩) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (٩٢) ، التاريخ الاندلسي (٦٨) .
(٣٤) البيان المغرب (٢/١٨ ـ ١٩) .
(٣٥) البيان المغرب (٢/١٩) .

قد تداعت علينا من كلّ ناحية ، فالغَوْث . . . . الغَوْث . . . . » ، فلما أتاه الكتاب ، نادى في الناس وعسكر ، فاستخلف عبد الله بن موسى بن نُصَيْر على إفريقيّة وطَنْجَة والسُّوْس (٣٦) ، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلى مروان بن موسى ابنه يأمره بالمسير ، فسار مروان بمن معه ، حتى أجاز إلى طارق قبل دخول أبيه موسى . وخرج موسى بن نُصير والناس معه ، حتى أتى المجاز ، فالمجاز ، فأجاز بمن زحف معه في جموعه(٣٧) .

هذان السببان مقبولان غاية القبول ، من الناحية العسكرية العلميّة البحت ، فقد شعر موسى أنّ المسلمين قد استرسلوا بالفتح ، أكثر مما ينبغي ، بالنسبة للقوات المتيسرة لديهم ، وأنّ خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة الأرجاء في خطر داهم ، فقد بقيت مدن الشرق والغرب الأندلسيّة لم تُفتح بعد ، وكان لابدّ من فتحها وإلاّ تعرّض المسلمون الفاتحون لخطر عزل قوّاتهم عن بعضها ، والقضاء عليها وهي متفرقة ضعيفة في كلّ مكان تحلّ فيه ، وقطع خطوط مواصلاتها الواهنة لامتدادها بعيداً عن قواعدها ، ولأنّ أجنحتها مكشوفة لوجود مدن معادية غير مفتوحة ، قريبة منها وتستطيع التأثير فيها بسهولة وسرعة،ولأنّ قوّات المسلمين كانت قليلة جداً ، بالنسبة إلى طول خطوط مواصلاتها وإلى سعة البلاد وكثافة سكّانها . وفعلاً حدث

(٣٦) السوس : (أ) السوس الادنى : كورة كبيرة بالمغرب مدينتها طنجة . ب . السوس الاقصى : اقصى بلاد المغرب على المحيط ، والسوس الاقصى ، اسم مدينة اطلق اسمها على كورة السوس الاقصى ذات المدن والقرى الكثيرة . جـ . والسوس : مدينة بالمغرب كانت الروم تسميها قمونية ، وبين السوس الاقصى مسيرة شهرين ، وبعده المحيط الاطلسي، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢/٥) والمشترك وضعا (٢٥٩) والمسالك والممالك (٣٤) .

(٣٧) الامامة والسياسة (٧٤/٢ ـ ٧٥) ، وفي البلاذري (٢٣٢) : ان موسى كتب الى طارق كتابا غليظا ، لتغريره بالمسلمين وافتتانه عليه بالراي في غزوه ، وامر الا يتجاوز قرطبة .

ما توقّعه طارق وموسى ، فقـــد أصبح قسم من قوّات المسلمين منعزلاً أو شبه منعزل ، بعيدة عن إمكان دعمها بقوّات إسلاميّة كافية عند الحاجة ، وأصبح موقف المسلمين بصورة عامة في الأندلس خطيراً للغاية ، مما جعل طارق يستغيث بموسى ، فلا يرى موسى حلاً مُرضياً إلاّ أن يعبر إلى الأندلس بنفسه مع قوّات إسلامية كافية ، لمعالجة الأمور هناك ، فحشد لحملته هذه كلّ قوّاته المتيسّرة : عشرة آلاف من العرب ، وثمانية آلاف من البربر ، في سفن صنعها خصيصاً لذلك ، يحفزه شغف بالفتح رغماً من شيخوخته ، ونزل بولاية الجزيرة ، حيث استقبله الكونت يوليان ، وذلك في شهر رمضان من سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٣٨) (حزيران – تموز ٧١٢ م) .

وأكاد أتبيّن بوضوح ، أنّ موسى كان يعرف حرص الخليفة الوليد ابن عبد الملك على أرواح المسلمين حرصاً لامزيد عليه ، وأنّه كان يمانع من ركوب البحر ومن فتح الأندلس حرصاً على أرواح المسلمين ، وأنه وافق على ركوب البحر وفتح الأندلس أخيراً بعد إلحاح موسى بن نُصير عليه وتزيين أمر الفتح له وتهوين أمر ركوب البحر عليه ، على أن تبقى مسئولية العمليّة كلها على عاتق موسى وحده دون سواه ، إذا لحق بالمسلمين ضرر وغُرِّر بهم ، فقد كتب موسى إلى الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح الأندلس ، فأجابه الوليد : « أنْ خضها بالسّرايا ، حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تُغرِّر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال » ، فلما راجعه موسى ، أنّه ليس ببحر زخار ، إنما هو خليج منه يبين للناظر ما خلفه ، أجابه الوليد : « وإن كان ،

---

(٣٨) أخبار مجموعة (١٥) وفتح الاندلس (١٠) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٢٦٩/١) والرسالة الشريفية (١٩٢) . ويذكر ابن حبيب (٧٣) وكل من الرازي وعريب ابن سعد ، ان موسى أبحر بعشرة آلاف رجل فقط ، انظر ابن الشباط (١١٦ – ١١٧) والبيان المغرب (١٣/٢) ونفح الطيب (٢٧٧/١) .

فلا بدّ من اختباره بالسّرايا قبل اقتحامه » (٣٩) ، وهكذا بقي موسى مع موافقة الوليد ، المسئول الأول عن عمليّة العبور والفتح ، ولن يتساهل معه الوليد إذا لحق بالمسلمين خسائر بالأرواح دون مسوِّغ منطقيّ مقبول .

لقد كان نزول موسى إلى الأندلس لسبب حربيّ واضح ، وهو تدعيم الفتح وترصينهُ ، وحتى يحول دون وقوع كارثة أكيدة بالمسلمين ، من جرّاء تغلغل طارق في الأندلس تغلغلاً لايتناسب مع مالديه من رجال .

وقد يرد على البال – وبخاصة بالنسبة للمدنيين – أنّ أعداد المسلمين تكاثروا في الأندلس بعد انتصاراتهم المتوالية ، فقد زحف البربر بأعداد ضخمة إلى برّ الأندلس ، واستوطنوا سهولها التي نزح عنها سكانها الأصليون ، ولكن تَعداد المسلمين الاجمالي في الأندلس ، ليس هو المهم ، بل المهم هو تعداد المقاتلين منهم ، المدربين على القتال ، والمجرَّبين في الميدان ، فقد اختار موسى قوات طارق قبل إبحارها معه إلى الأندلس ، واختار له جنود المدد وقيادتهم حين طلب طارق المدد ، أما الذين جاءوا للارتزاق والسكن من غير المدرّبين والمجرِّبين ، فلا قيمة قتالية لهم في ميادين القتال .

أما ما تردّد في مصادر التاريخ الاسلاميّ ، من أنّ موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح ، حتى أكل الحسد قلبه ، وقرّر أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح(٤٠) ، وأنّه أساء معاملة طارق وضربه بالسّوط(٤١) ، فمغالى به ، إذ لايُعقل أن يصدر ذلك عن تابعيّ جليل وقائد فاتح عرف بالعقل والاتّزان والمروءة كموسى بن نُصير .

---

(٣٩) نفح الطيب (٢٥٣/١) والبيان المغرب (٦/٢) ووفيات الاعيان (٣٢٠/٥)، وانظر التاريخ الاندلسي (٤٦) .

(٤٠) ابن الاثير (٢١٥/٤) والبداية والنهاية (٨٣/٩) والبيان المغرب (١٩/٢) وابن خلدون (١١٧/٤) ونفح الطيب (٢٥١/١) .

(٤١) فتح مصـــــر والمغرب (٢٨٣) .

ثم إنّ طارقاً كان مولى لموسى ، يعمل بأوامره ، وينفّذها نصاً وروحاً ، وكان يكتب إليه أخبار الفتح مفصلاً ، فلو أنّ موسى حسد طارقاً أو أساء الظنّ به ، لاستطاع إزاحته عن طريقه ، وذلك بعزله أو استدعائه إلى القَيْروان ، فليس من المعقول أن يستطيع طارق مخالفة أوامر مولاه موسى في شيء .

ولعل أوضح دليل ، على مبلغ التزام طارق بطاعة موسى ، وأنّه كان مثالاً للطاعة والنِّظام ، أنّه بعث بأولاد غيطشة إلى مولاه موسى ، عندما قدموا إليه في طُليطلة وقالوا له « أنت أمير نفسك ، أم على رأسك أمير ؟ » ، فقال طارق : « بل على رأسي أمير ، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم » (٤٢) ، وهذا يدلّ على منتهى الضبط وتقدير المسئوليّة والالتزام بسلسلة المراجع .

وأوضح دليل ، على أنّ قدوم موسى إلى الأندلس ، كان لمعاونة طارق لا لتأديبه ، وأنّه قدم الأندلس لأغراض عسكرية بحت ، هو أن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزوله أرض الأندلس ، وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الشرقية والغربية التي خلّفها طارق دون فتح ، وذلك لحماية جناح طارق الأيسر والأيمن من جهة ، ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة في الأندلس وتجميد قوّات العدو بإشغالها في جبهات عديدة بقوات المسلمين الضاربة ، فلما تمّ له ذلك سار موسى إلى طارق ولقيه في طَلَبِيْرة (٤٣) على مقربة من طُليطلة ، ويقال إنّ الملاقاة بين طارق وموسى حدثت في مكان يدعى المعرض (Almaraz) بين نهري تَاجُهْ (Tojo) والتيتار (Tietar) قرب طَلَبِيْرَة غربي

(٤٢) نفح الطيب (١/٢٤٩) .

(٤٣) طلبيرة : مدينة بالاندلس من اعمال طليطلة كبيرة ، قديمة البناء ، على نهر تاجة ، بضم الجيم . وهي (Talavera de La Reina) الى الغرب من طليطلة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٥٣) وابن الابار (٢/٢٥٧) والروض المعطار (١٢٧) وآثار البلاد واخبار العباد (٥١٥) وصفة المغرب والاندلس للادريسي (١٨٧) وجغرافية الاندلس واوروبا (٨٩) .

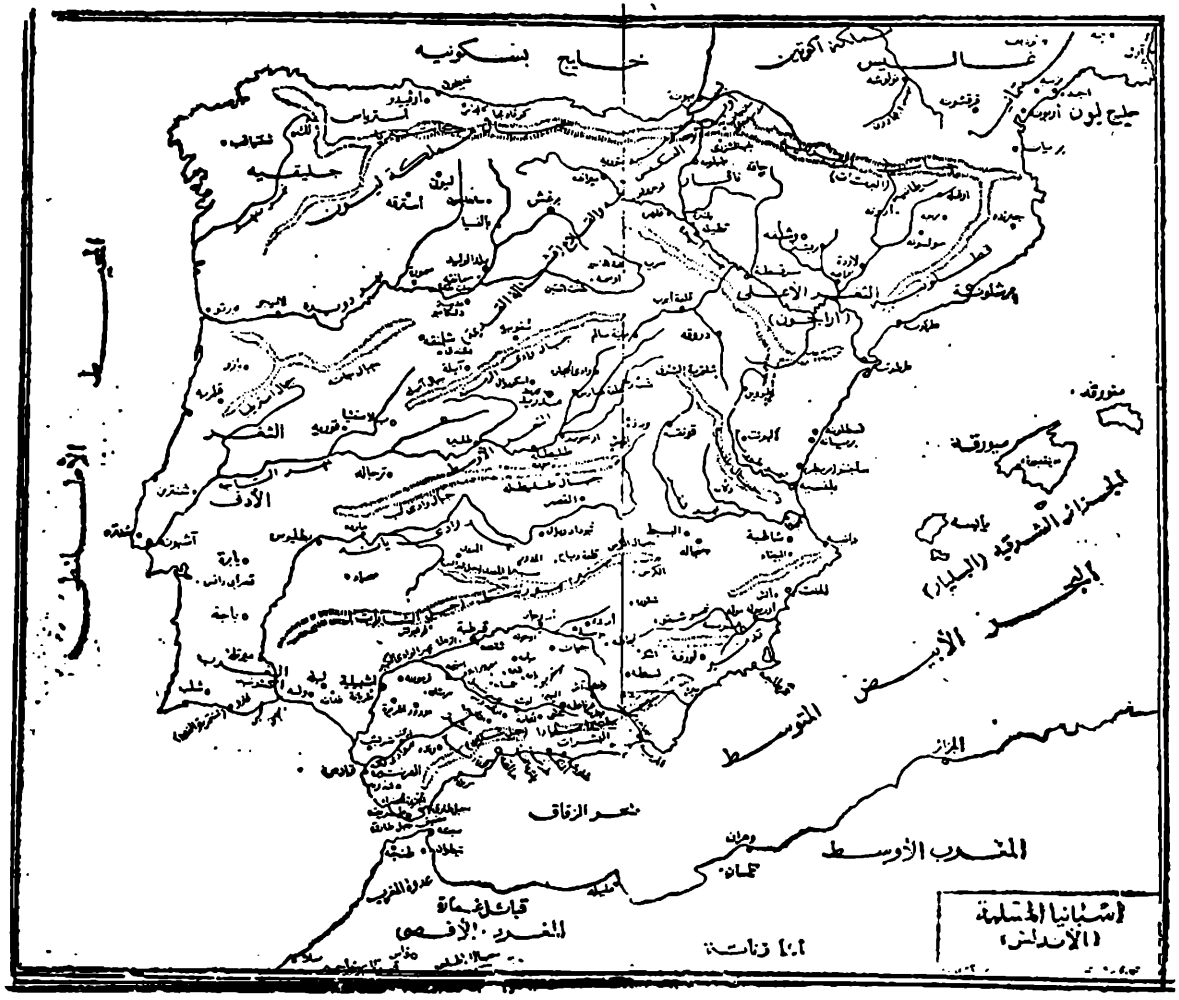
خليج بسكونيه
جليقيه
المحيط الأطلنطي
الشمال
الأدف
البحر الأبيض المتوسط
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
قباك الصحاة
بحر الزقاق
اسبانيا المسلمة
(الأندلس)
١٠٠ زنانة

طُليطلة (٤٤) . وحين التقيا قال موسى لطارق : « يا طارق ! إنّه لن يجازيك الوليد بن عبدالملك على بلائك ، بأكثر من أن يمنحك الأندلس ، فاستبحه هنيئاً مريئاً » ، فقال طارق : « أيّها الأمير ! والله لا أرجع عن قصدي هذا ، ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط ، أخوض فيه بفرسي » ، ولم يزل طارق يفتح وموسى معه ، إلى أن بلغ إلى جِلّيقيّة ، وهي على ساحل البحر المحيط (٤٥) .

---

(٤٤) فتح مصر والمغرب (٢٠٧) وأخبار مجموعة (١٨) وفتح الاندلس (١١) والبيان المغرب (١٦/٢) والرسالة الشريفية (١٩٣) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٢٧١/١) ، وقارن Saavedra. p. 98.

(٤٥) نفح الطيب (٢٧١/١) ، فاين ذلك مما جاء في كتاب : فتح مصر والمغرب (٢٨٣) : « وأخذ موسى بن نصير طارق بن عمرو . فشده وثاقا وحبسه وهمّ بقتله . وكان مغيث الرومي غلاما للوليد بن عبدالملك ، فبعث اليه طارق فأبلغه ان رفعت أمرى الى الوليد ، فان فتح الاندلس كان على يدى ، وأن موسى حبسني يريد قتلي . أعطيتك مائة عبد ... وعاهده على ذلك .... فلما أراد موسى الانصراف ، ودع موسى بن نصير ، وقال له : لا تعجل على طارق ، ولك أعداء . وقد بلغ أمير المؤمنين أمره ، وأخاف عليك وجده ! فانصرف مغيث وموسى بالاندلس !

« فلما قدم مغيث على الوليد ، أخبره بالذى كان من فتح الاندلس على يدى طارق ، وبحبس موسى اياه ، والذى أراد به من القتل ، فكتب الوليد الى موسى ، يقسم له بالله ، لئن ضربته لأضربنك ، ولئن قتلته لأقتلن ولدك به ؛ ووجه الكتاب مع مغيث الرومي .... فقدم به على موسى الاندلس . فلما قرأه أطلق طارقا وخلى سبيله ، ووفى طارق لمغيث بالمائة عبد التي كان جعل له » .... انتهى !!

واقول : ان هذا الذى ذكره ابن عبدالحكم في كتابه : فتح مصر والمغرب ، يناقض ما ذكره هو أيضا في ص (٢٨٣) من نفس الكتاب ، فقد ذكر في ص (٢٨٠) : فأجاز موسى من الخضراء ، ثم مضى الى قرطبة ، فتلقاه طارق ، فترضاه ، وقال له : انما انا مولاك ، وهذا الفتح هولك » . ثم ذكر في نفس الصفحة أيضا : « ويقال : ان موسى هو الذي وجه طارقا بعد مدخله الاندلس الى طليطلة ، وهي النصف ما بين قرطبة وأربونة ، وأربونة أقصى ثغر الاندلس » ... وهذا يدل على ان

ولم يلبث طارق وموسى أن تعاونا تعاوناً وثيقاً ، فترك موسى طارقاً على

موسى كان منسجما مع طارق ، ويدل على انه لم يحبسه ولم يهم بقتله ، وأن كل ما جاء حول ذلك لا نصيب له من الصحة .
وابن عبدالحكم على جلالة قدره مؤرخا وعالما ، يذكر الروايات المختلفة اسوة بغيره من المؤرخين القدامى ، كأنه يحشد المعلومات المتيسرة ، دون أن يترك شاردة ولا واردة منها ، تمهيدا لمن يأتي بعده من المؤرخين ، ليناقش تلك الروايات ، ويرجح منها ما يراه راجحا ، ويبدي رأيه بالذي يراه صوابا ، فجزاه الله عن المؤرخين خيرا .

وفي كتاب : فجر الاندلس ص (٨٦) : « ولا نرى الا تفسيرا واحدا لانفراد ابن عبدالحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية ، هو انها كانت معروفة في المشرق ، مجهولة عند اهل الاندلس . واما وجودها في المشرق فمرجعه على اغلب الظن الى مغيث الرومي ، فقد كان محنقا على موسى ، مولعا بالكيد له ، لانه كان يرى انه مولى الوليد ، وانه أولى بولاية الاندلس كما سنرى ، فانتهز فرصة ذهابه الى المشرق لابلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، واخذ يبالغ في مساءات موسى ويختلق عليه ، حتى لقد انكر عليه كل فضل في الفتح كما يرى في رواية ابن عبدالحكم الانفة الذكر ، وانتشرت قالاته بين أهل قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبدالحكم في هذه الناحية .
« واما الاندلسيون ، وهم احرى أن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته ، لان اخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون الا أن موسى : « وضع السوط على راس طارق ووبخه » ، كما يقول صاحب الاخبار المجموعة ، وقد كان مستطيعا أن يقول : ان موسى ضرب طارقا بالسوط ، بدلا من قوله : وضع السوط على رأسه ، فقط »... انتهى .

ولا أرى أن مغيثا يفتري على الخليفة الكذب ، وهو الصادق المؤتمن ، وليس بالامكان اتهام موسى مثل هذه التهمة ، لأن كذبها سيظهر حتما ،لعدم امكان اخفاء مثل تلك التهمة الكبرى ، ولا يمكن أن نصدق أن مغيثا ينقل للخليفة غير الواقع والصدق . ويبدو أن مغيثا لا علم له بهذه القصة ، وقد وضعت على لسانه من بعده ، لذلك لم يصدقها احد ولم ينقلها أهل الاندلس عن ابن عبدالحكم ، لانهم لم يصدقوا الحادث والحديث والراوي ، ومن حق كل انسان الا يصدق ما يبدو عليه التزوير والانحراف والافتراء .

قيادته ، وسار كلّ منهما في اتّجاه ، متعاونين متساندين ، وهذا واضح من قول ابن حيّان : « قالوا : ثمّ إنّ موسى اصطلح مع طارق ، وأظهر الرضى عنه ، وأقرّه على مقدّمته ، وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه » (٤٦) .

لقد تحمّل جيش طارق من الأعباء ما يزيد على طاقته ، لدرجة أجهدت الجند وعرّضتهم للأخطار ، فقد اقتحم هذا الجيش الأندلس ، وصادم القوط في مواقع موضعيّة وموقعة حاسمة ، وتوغّل في قلب البلاد ، واستولى على حاضرتها قبل أن يستفيق القوط من الصدمة ، كلّ ذلك جرى في وقت قصير . ثمّ إنّ المقاومة القوطيّة بدأت تتكوّن وتترعرع وتشتد بالتدريج في نواحي البلاد ، وبخاصة في جهة غربيّ الأندلس ، حيث تصلح المناطق الجبليّة المهجورة في إقليم استرامادور لأن تكون أوكاراً لرجال المقاومة القوطيّة . وهذا يفسّر لنا خط سير الحملة التي قادها موسى بن نُصير (٤٧) ، فحمى الجناح الأيسر المكشوف لقوّات طارق ، وحرم المقاومة القوطية من فرصة التعرّض بخطوط مواصلات المسلمين ، التي ترابط قواتهم الأمامية بقواعدها المتقدّمة في الأندلس . وهذا ما يفسّر لنا أهم سبب من أسباب توقّف طارق في طُليطلة وعدم تغلغله في الفتح ، فقد حرص موسى – وهو على حق– على توقّف طارق عن الانطلاق شمالاً أو شرقا أو غرباً للفتح ، خوفاً من محاولة القوط قطع خطوط مواصلات قوّات طارق . وحتى لا يتعرّض جناحا قوّات طارق الأيمن والأيسر لخطر تعرض المقاومة القوطيّة المحتملة ، مما يسبّب لها خسائر فادحة بالأرواح .

والواقع . أنّ موسى كان يعمل مع طارق من أوّل نزوله الأندلس ،

(٤٦) نفح الطيب برواية ابن حيان (١/١٧٢) .
(٤٧) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (٩٢) .

بتعاون وثيق ، وأنّ خروج طارق للقاء موسى عند طَلَبِيْرَة لم يكن لمجرّد اللّقاء . بل لغرض آخر حربيّ سنعرفه ، وقد أتمّ الرجلان الفتح على أحسن ما يكون القادة تعاونا (٤٨) .

ب . فتوح موسى قبل لقاء طارق :

نزل موسى في جبل الفتح (جبل طارق) ، ثم دخل الجزيرة الخضراء وأقام فيها أياماً للراحة والتأهّب ، فلما عزم السير ، جمع حوله رايات العرب ووجوه الكتائب ، وعددها يزيد على عشرين راية . فأجمعوا السّير إلى إشْبِيْلِيَة وغزوا ما بقي من غربيّ الأندلس حتى أكْشُوْنِيَة (٤٩) .

وزحف موسى إلى شَذُوْنَة ، ومنها سار إلى قَرْمُوْنَة ورعواق (Alcaca Guadaira) ففتحها ، وبهذا أمّنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشَذُوْنَة ورعواق وقَرْمُوْنَة وإسْتِجة وقرطبة في يد المسلمين ، وأصبح بامكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح إشْبِيْلِيَة كبيرة مدائن شبه الجزيرة بعد طُليطلة إذ ذاك .

واتّجه موسى بقوّاته نحو إشْبِيْلِيَة ، ففتحها المسلمون بعد بضعة أشهر من الحصار ، ويبدو أنّ سكانها فتحوا أبوابها للمسلمين بعد أن طال

---

(٤٨) انظر التفاصيل في قادة فتح المغرب العربي (١/٢٥١ ــ ٢٥٥ ــ) وفجر الأسلام (٨٧) .

(٤٩) اكشونيه : مدينة بالاندلس ، يتصل عملها بعمل لشبونة ، وهي غربى قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١٧/١) ، وفيه وردت اكسبونة . ورد اسم هذه المدينة في المصادر العربية بصيغ مختلفة : رعوان ؛ زعواق ، رعواق ، ويبدو أن الصواب هو : رعواق ، وهى قلعة جوادايرا ، انظر : نفح الطيب برواية ابن حيان (١٧٠/١) واخبار مجموعة (١٦) وفيهما ذكر فتح قرمونة قبل اشبيلية .

الحصار واشتّد القتال . وأما حاميتها القوطيّة ، فانسحبت إلى لَبْلَة (٥٠) على مصب وادي آنة ، ومنها إلى أَكْشُوْنِيَة (Sta. Maria de Faro) (Ossonoba) ، ثم إلى بَاجَة (٥١) ، وهناك استقرّت تنتظر الحوادث .

وسار موسى على رأس قوّاته قاصداً ماردَة (٥٢) ، متبعاً طريقاً رومانياً قديماً كان يصل البلدتين ، واستولى في طريقه على بلدة تسمى لَقَنْت (٥٣) سلّم له أهلها دون مقاومة ، فسمّوا لذلك : موالي موسى (٥٤) .

ولما أدرك موسى ماردة . وجدها أحصن وأقوى مما ظنّها . فقد كان الهاربون من فلول القوط قد تجمّعوا فيها ، لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك ، فأقام موسى محاصراً البلد بقيّة الصيف والشتاء التالي ، ولم يسلّم البلد إلاّ في الأول من شهر شوّال سنة أربع وتسعين الهجريّة (٣٠

---

(٥٠) لبلة : قصبة كورة بالاندلس كبيرة ، يتصل عملها بعمل اكشونية وهى شرق من اكشونية وغرب من قرطبة . بينها وبين قرطبة على طريق اشبيلية خمسة ايام . اربعة واربعون فرسخا ، وهى برية بحرية ، انظر معجم البلدان (٣١٩/٧) .

(٥١) باجة : مدينة من اعمال الاندلس ، تتصل بنواحي ماردة ، وهي ضمن اثنتي عشرة مدينة قاعدتها ماردة ، انظر المشترك وضعا والمفترق صقعا (٣٣) وجغرافية الاندلس واوروبا (٦٣) .

(٥٢) ماردة : كورة متصلة من نواحي الاندلس ، متصلة بحوز فريش بين الغرب والجوف من اعمال قرطبة ، احدى القواعد التي تخيرتها الملوك للسكنى ، وهى مدينة رائعة كثيرة الرخام . فيها آثار قديمة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٠/٧ .

(٥٣) لقنت : حصنان من اعمال ماردة بالاندلس : لقنت الكبرى ، ولقنت الصغرى . وكل واحدة تنظر الى صاحبتها ، انظر معجم البلدان (٣٣٦/٧) . وقال ابن القوطية : « ثم قصد من اشبيلية ، الى لقنت ، الى الموضع المعروف بفج موسى . في اول لقنت الى ماردة » ، انظر افتتاح الاندلس (٩) .

(٥٤) فتح الاندلس (١١) ، وانظر تعليق (Joaquin de Gonzalez) بخصوص هذه العبارة (٩٣) من الترجمة ، وانظر فجر الاندلس (٩٣) .

حزيران – يونيو ٧١٣ م) بعد قتال طويل ، هلك فيه نفر كبير من حامية البلدة بسبب كمائن أخفاها موسى في مقاطع الصخر أمام مخارج البلد ، وقد استُشهد أثناء محاولات نقب السور نفر من المسلمين ، سقطت عليهم دبابة كانوا قد اختفوا تحتها لينقبوا طبقة من السور مبنيّة من شيء يشبه التُرابة (٥٥) الصلبة . ولم يسلِّم أهل البلد إلاّ بعد أن عاهدهم موسى على : « أنّ جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليّقيّة للمسلمين ، وأموال الكنائس وحليّها لها » ، وهي شروط سيكون لها أثر في تحديد العلاقة بين المسلمين والقوط فيما بعد (٥٦) .

وأقام موسى في ماردة أكثر من شهر ، يرتّب أحوالها ، وينظّم أمورها ، ويريح رجاله ، ويكمل نواقصهم في السلاح والتجهيزات ووسائط النقل من الحيوانات ، استعداداً لاستئناف الفتوح .

ج . لقاء القائدين :

من الواضح أنّ موسى أحسّ أن عناصر المقاومة القوطيّة في ناحية ماردة ،

---

(٥٥) الترابة : الاسمنت .

(٥٦) وردت هذه العبارة الهامة عن ذلك الاتفاق في : اخبار مجموعة (١٨) ونفح الطيب (١/١٧١) ، وقد أورد هذان الكتابان تفاصيل مهمة عما فعله المسلمون حتى استطاعوا الاستيلاء على هذا الحصن المهم . ومن ذلك قصة المسلمين الذين استشهدوا تحت الدباية التى كانوا يختبئون تحتها لنقب سور البلد ، ذكروا ان هذا الموضع يسمى الى وقتهما : (برج الشهداء) لهذا السبب . ويذكران ايضا حيلة موسى مع اهل ماردة وتلوينه شعره من ابيض الى احمر الى اسود ارهابا لهم ، وانظر تفاصيل فتح ماردة في : الرازى نشر جاينجوس (٧٨) واخبار مجموعة (١٦–١٨) وابن الاثير (٤/٥٦٥ – ٥٦٦) والبيان المغرب (٢/١٤ – ١٥) والنويري (٢٢/٢٨ – ٢٩) وفجر الاندلس (٩٣) والفتح والاستقرار العربى الاسلامي (١٩٦) والتاريخ الاندلسي (٧٤ – ٧٨) .

كانت أقوى مما لقي المسلمون في أماكن أندلسية أخرى ، وعرف أنّ فلول القوط وأنصار لذريق بخاصة كانوا يتجمّعون في تلك المناطق الجبليّة الوعرة ظنّاً منهم أنّ المسلمين إذا وصلوا إليها ، فان طبيعتها الجبليّة الوعرة ستساعد المقاومة القوطيّة على الدفاع الرّصين ، حيث يمكن التّسرّب منها إلى نواحي قَشْتَالَة (٥٧) واسترامادورة إذا أخفقوا في الدفاع ، وفعلا لاقى موسى عقبات في طريقه من ماردة إلى طليطلة ، فخفّ طارق للقاء موسى بالظاهر ، ونجدته بالواقع ، حتى يخفّف الضغط على قوات موسى من جهة ، وليجبر المقاومة القوطيّة على مجابهة قوّات موسى وقوّات طارق في آن واحد ، ويضطرّها على الانسحاب .

والذي أخّر طارق عن الخروج للقاء موسى ، منذ عبوره إلى الأندلس ، حتى هذه الأيام . يمكن تفسيره بأن موسى ، رأى أنّ مقام طارق بطليطلة يؤمّنه من عمل يقوم به قوطها . فلما فرغ من أمر ماردة ، وأراد السيّر نحو طليطلة ، أحسنّ أنّ الطريق طويل محفوف بالمخاوف ، لأن فلول القوط كانت تتجالب (٥٨) وتتجمع في تلك النواحي . فلما رأت موسى يأخذ في الطريق وجدت الفرصة سانحة لاعتراضه ومنازلته في معركة لها ما بعدها . وكان هذا هو السبب الذي حفّز طارقاً إلى المسير للقاء موسى . ولا يُعلّل سكوت طارق عن الذهاب إلى مولاه موسى طيلة أشهر الشتاء رغم وجوده على مقربة منه ، إلاّ بأنّ موسى لم يطلب إلى طارق المجيء إليه إلاّ في تلك الأيام ، حينما أحسّ ببعض ما كان يدبّر حوله في هذه المناطق الجبليّة الوعرة .

والواقع أن حشود القوط تربصت بالمسلمين في تلك المنطقة ، ولبثوا

---

(٥٧) قشتالة : اقليم عظيم بالاندلس . انظر التفاصيل في معجم البلدان

(٥٨) البيان المغرب (١٥) .

يتحينون الفرصة للانقضـــاض على جيوش المسلمين . ولم يكن موسى ليستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وهؤلاء في طريقه ، فكان لابد له من القضاء عليهم ، ولهذا استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة ، فسار طارق نحو مائة وخمسين ميلاً ، وانتظر مولاه في وادي الأرّوكامبو (Arrocampo) ، في مكان يسمى المعرض (Almaraz) بين التاجة ونهر التيتار (Tietar) قرب طلبيرة غربي طليطلة (٥٩) .

أما موسى فسار في طريق ماردة ــ سلمنقة بحذاء نهر أطلق عليه اسمه ، وهو نهر موسى (Valmuza) (٦٠) .

وإذا كان قد حدث شيء ما بين القائدين، فلا يعدو أن يكون مناقشةَ بعض القضايا أو استفهامه من طارق خطته وإبداء الملاحظات عنها . « وعلى توغّله بالمسلمين ، وتغريره بهم » (٦١) ، حيث اندفع بهذه السرعة إلى قلب البلاد . وحين : « خرج إليه طارق وتلقّاه ، فتعتّب عليه موسى وقال

---

(٥٩) فتح مصر والمغرب (٢٠٧) وأخبار مجموعة (١٨) وفتح الاندلس (١١) والبيان المغرب (١٦/٢) والرسالة الشريفية (١٩٣) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٢٧١/١) ، وفجر الاندلس (٩٩) ، وقارن Saavedra. p. 98.

(٦٠) وتعيين اتجاه موسى على هذا النحو ، يعيننا على تحديد المكان الذى التقى فيه بطارق على وجه التقريب . فابن عذارى يقول : واتفق الأكثرون على أن التقاءهما كان على طليطلة : « لما بلغه مسير موسى اليه، فلقيه بمقربة من طلبيرة » ، كما قال الرازى ، وذكر الطبرى أنه كان على قرطبة . ولما كانت بعض المراجع ، الاجنبية تقول بأن اللقاء وقع عند ناحية تسمى (Almaraz) وهو لفظ عربي الاصل يرجع الى أصله العربي : (المعرض) وهو مكان على مقربة من طلبيرة ، فاننا نستطيع القول بأن لقاء بين موسى وطارق وقع هناك ، انظر البيان المغرب (١٧/٢) وأخبار مجموعة (١٨)
Saavedrv. op. Cit. p. 98, Rode Ricus Tolitanus. De rbus Hispaniae, 1, 111. Cap. XX 1 V

(٦١) البيان المغرب (١٦/١) .

له : ما دعاك إلى الإيغال والتّقحمّ في البلاد بغير أمري ؟ » (٦٢) . فاعتذر له طارق بخطته العسكرية أمام الظروف المحيطة والضرورة الداعية لأسلوبه القتالي (٦٣) . وقد تمكّن طارق من حسم القضيّة مع سيّده ، وأظهر نواياه الحسنة ، وعرض على موسى كلّ ما أصابه من غنائم وكنوز في فتوحاته (٦٤) . ويبدو أنّه كان موفقاً أيضاً في إقناع موسى بوجهة نظره في الفتح ، وبضرورة استقرار المسلمين الدائم في البلاد المفتوحة ، وهذا الأمر واضح جداً من التفاهم المتبادل ، والتعاون المشترك الذي ساد بين القائدين خلال فتوحاتهما المشتركة (٦٥) : « ثم انّ موسى اصطلح مع طارق، وأظهر الرضى عنه ، وأقرّه على مقدمته ، وأمره بالتقدّم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه » (٦٦) ، كما ذكرنا ذلك .

لقد كان عبور موسى إلى الاندلس لسبب حربيّ واضح ، وكان باستدعاء طارق له ، فجاء منقذاً لا منتقما . كما كان توجه طارق للقاء موسى لسبب حربيّ واضح أيضاً . لأن قوّات موسى أصبحت مهدّدة بحشود المقاومة القوطيّة . فقدم إلى موسى بمبادرة منه أو بطلب من موسى ، وما حدث في سير الحوادث هو الدليل القاطع على سبب اللّقاء بين القائدين .

فقد انقضّت حشود المقاومة القوطيّة التي كانت في تلك المنطقة الجبلية

---

(٦٢) تاريخ الاندلس (٢٥ مقدمة المحقق) و (١٤٩ نص ابن الشباط) والحلة السيراء (٤٣٢/٢) .

(٦٣) التاريخ الاندلسي (٩٠) .

(٦٤) اخبار مجموعة (١٩) وابن الاثير (٥٦٥/٤) والبيان المغرب (١٦/٢ ــ ١٧) والنويري (٢٩/٢٢) و نفح الطيب برواية ابن حيان (٢٧٣/١) .

(٦٥) الفتح والاستقرار العربي الاسلامي في شمال افريقيا والاندلس (١٨١) .

(٦٦) نفح الطيب برواية ابن حيان (١٧٢/١) .

الوعرة على جيش موسى في ناحية يسميها مؤرخو المسلمون : السَّواقي ، وهي (Segyuela de los Cornejos) على مقربة من تمامس (Tamames) (٦٧) ، فردّ المسلمون على القوط بهجوم مقابل وثبتوا للقوط حتى أفنوهم عن آخرهم (٦٨) .

ويبدو أنّ اشتباك المسلمين بالقوط في معركة السَّواقي ، شجّع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ، ووثبوا بها ، فاضطرّ موسى إلى فتحها من جديد ، ودخولها دخول المنتصر .

أليس هذا الذي حدث في معركة السّواقي ، وفتح طيلطيلة ثانية ، دليلاً قاطعاً ، على أنّ المسلمين بقيادة طارق بعد تغلغلهم العميق في البلاد ، أصبحوا في خطر جسيم ، لانكشاف جناحيهم : الأيمن والأيسر ، ولتهديد خطوط مواصلاتهم الطويلة الواهنة ، فكان عبور موسى هو لدرء هذا الخطر الجسيم . كما أن بقاء طارق في طليطلة دون فتح جديد ، ودون لقاء موسى ، بالرغم من مضي مدة طويلة من الزمن على عبور موسى ، هو لتثبيت حشود المقاومة القوطيّة في أماكنها دون التعرض بقوات موسى وقوات طارق لأطول مدة ممكنة . كما أنّ حركة طارق للقاء موسى في طريقه إلى طليطلة ، وهو طريق جبليّ وعر فيه حشود المقاومة القوطية المتربّصة بالمسلمين ، كان

---

(٦٧) فتح الاندلس (٨) والامامة والسياسة (١٥٦/٢) .

(٦٨) لا عبرة بمن ذكر أن لذريق قتل في هذه المعركة ، وان قبره في فيزيو معروف حتى زمان الفونسو الكبير الذى ذكر في حولياته أنه رآه وقرأ عليه لوحة تقول : هنا يرقد لذريق ملك القوط (Hic requiescir Rudericus rex gothorur فقد قضى لذريق نحبه في المعركة الحاسمة التي قادها طارق ، كما ذكرنا ، والقبر وما مسجل عليه مزور كما هو واضح ، وكثيرة هى القبور المزورة كما هو معروف .
(٩) فتح الاندلس (١٢) .

لمعاونة موسى على اجتياز الطريق المحفوف بالمخاطر سالماً آمنا ، أو ضمان إحراز النصر على القوط إذا اشتبكوا بالمسلمين ، لأنّ اشتباكهم بقوات موسى وقوّات طارق أصعب عليهم من اشتباكهم بقوات موسى وحدها .

إنّ كلَ ما حدث يدلّ على أن القائدين كانا يعملان لمصلحة المسلمين العليا ، لا لمصلحتهما الشخصية الضيقة ، فلا مجال لتصديق ما زعمه بعضهم من حدوث مشادات بينهما ، قد تصدق على إطفاء ما يعتلج في صدور الصبيان من حزازات ، دون أن يخطر أمثالها ببال قائدين عظيمين .

وبالامكان ذكر أدلّة جديدة ، على أنّ موقف طارق والمسلمين في الأندلس ، نظراً لاندفاعهم السريع في عمق البلاد ، كان موقفاً خطيراً للغاية وواهناً إلى أبعد الحدود ، وهو السبب في استنجاد طارق بموسى ، وعبور موسى بنفسه إلى الأندلس ، لمعالجة الموقف الراهن وملافاة أخطاره ، ولو أنّ الأمر أصبح لا يحتاج إلى أدلة جديدة ، ولكنّ استكمال البحث بالدرجة الأولى . هو الذي يحملني على ذكرها بايجاز ، ثم لتكون أدلة جديدة تضاف إلى الأدلّة السابقة .

فقد ذكرنا أنّ طارقاً فتح مدينة شَذُوْنة عَنْوَة بعد معركته الحاسمة مع القوط ، كما فتح مدينة قَرْمُوْنَة وإِشْبِيْلِيَة وإِسْتِجّةَ وطُلَيْطُلَة .

وفتحت سراياه قُرْطُبَة ومالَقَة وإِلْبِيْرَة وكورة تُدْمِيرْ وغَرْناطة وأُرْيُولَة .

وذكرنا في فتوح موسى قبل لقائه بطارق ، أنّه فتح شَذُوْنَة وقَرْمُوْنَة ورعواق وإِشْبِيْلِيَّة وماردَة ولَقَنْت .

ومعنى ذلك ، أنّ كثيراً من المدن التي فتحها طارق لأوّل مرّة ، استعادها القوط ، مما يهدّد أجنحة قوّات طارق ، ويهدّد خطوط مواصلاته ، فاضطر

موسى أن يستعيد فتحها من جديد ، ، لتأمين جناحي طارق الأيمن والأيسر وخطوط مواصلاته ، ولتفتيت المقاومة القوطية أينما وجدت .

وحتى طُلَيْطُلَة ، بعد أن غادرها طارق بوقت قليل ، لكي يلاقي موسى وهو في طريقه إليها ، استعادها القوط ، فاضطر موسى أن يستعيد فتحها من جديد .

لقد عزّز عبور موسى موقف المسلمين بقيادة طارق في الأندلس ، وأزاح عنهم ما كان يخشونه من أخطار ، وأمّن خطوط مواصلات المسلمين ، وحمى أجنحتهم حماية كاملة ، وفتّت قوّات القوط ، وبدّد حشودهم في الجبال الوعرة ، وجعل آمالهم في استعادة ما فتحه المسلمون إلى حوزتهم سرابا ، وأظهر لهم بالقوة تارة وبالسياسة تارة أخرى ، أنّ الخيار الوحيد المفتوح أمامهم ، هو الاستسلام للمسلمين ، والتعاون معهم في إدارة البلاد ، ومعاونتهم في تعميرها ، فقد جاء المسلمون ليبقوا لا ليرحلوا .

ومضى موسى وطارق إلى طليطلة ، ليقضيا فصل الشتاء معاً هناك ، وليرتاح المسلمون ويكملوا استعداداتهم لفتح جديد .

د . الفتح المشرك بين القائدين :

كان هدف موسى وطارق السَّوْقي (٦٩) ، هو فتح شمالي الأندلس ، وقد بدأ بانتهاء فصل الشتاء وحلول فصل الصيف ،أي حوالي شهر جمادى الثانية من سنة خمس وتسعين الهجرية (آذار – مارس ٧١٤ م) . وزحف الجيش الاسلامي ، على مقدّمته طارق ، وسار موسى خلفه على جيوشه

(٦٩) السوقى : : الاستراتيجي ، من السوق ، وكانت تستعمل في الجيش العراقي منذ الثلاثينات من القرن العشرين الميلادي .

نحو مدينة سَرَقُسْطَة (٧٠) (Zaragoza) : « المدينة البيضاء » (٧١) ، ففتحا المدينة دون قتال شديد على ما يبدو ، فأقاما هناك سويّة ينظمّان أحوالها ، وأنشأ فيها مسجداً خطّطه التابعيّ الجليل حَنَش بن عبدالله الصَّنعاني (٧٢) . وأوغلا في البلاد ، لا يمرّان بموضع إلاّ فُتح عليهما ،

(٧٠) سرقسطة : تعريب للاسم الروماني : قيصر اجستا (Saesar Augusta) لأن آغسطس قيصر هو الذي أسسها سنة (٢٣ ق.م) على اطلال المدينة الايبيرية القديمة التي كانت تعرف عند الايبيريين باسم : سلدوبا (Salduba) ، وهي من اطيب البلاد ، تقع على نهر ابرَهْ الذى مجراه ينصب في البحر الابيض المتوسط بساحل طرطوشة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧١/٥) ونصوص عن الاندلس لابن الدلائي (٢١ ــ ٢٣) .

(٧١) الروض المعطار (٩٦) .

(٧٢) حنش بن عدالله الصنعاني : هو حنش بن عبدالله بن عمرو بن حنظلة أبو رشيد ، من صنعا دمشق ، روى عن فضالة بن عبيد ورويفع بن ثابت وابي هريرة وابي سعيد ، وروى عنه ابنه وقيس بن الحجاج وجماعة . غزا المغرب ، وسكن افريقيا ، وعداده في المصريين ، وهو تابعى كبير ثقة. دخل الاندلس ، وكان مع على بن ابى طالب بالكوفة وبعد استشهاد علي رضي الله عنه ، غزا المغرب والاندلس . كان حنش اذا فرغ من عشائه وحوائجه ، واراد الصلاة من الليل ، أوقد المصباح وقرب المصحف واناء فيه ماءه فكان اذا وجد النعاس استنشق بالماء ، واذا تعايا في آية نظر في المصحف ، وكان اذا جاءه سائل مستطعم لم يزل يصيح باهله : « اطعموا السائل » ، حتى يطعم . نزل مصر ، ومات سنة مائة الهجرية ، وكان فيمن ثار مع ابن الزبير على عبدالملك بن مروان ، فاتى به عبدالملك في وثاق فعفا عنه ، وذلك لان عبدالملك حين غزا المغرب مع معاوية بن حديج نزل عليه بافريقية سنة خمسين الهجرية ، فحفظ له ذلك . غزا الاندلس مع موسى بن نصير وله بها آثار ، ويقال : ان جامع سرقسطة من ثغور الاندلس من بنائه،وانه اول من اختطه .وفيروايةان ابا المهاجر دينار بعث حنش بن عبدالله الصنعاني الى جزيرة شريك (في افريقية) ، فافتتحها ، انظر التفاصيل في تهذيب ابن عساكر (٥/٥ ــ ١١) ومعجم البلدان (٣٩٢/٥ ــ ٣٩٣) والاستقصا (٧١/١ وتاريخ علماء الاندلس (١٢٥/١) رقم٣٩١ وجذوة المقتبس (٢٠٢) رقم ٤٠٣ وبغية الملتمس (٢٧٨) رقم ٦٨٧ وقادة فتح المغرب العربي (١٣٩/١) و (١٥٢/١) .

وكانت الغنائم جسيمة ، ولم يعارضهما أحد إلاّ بطلب صلح ، وموسى يجيء على أثر طارق في كلّ ذلك ، ويُكمل ابتداءه ويوثق الناس على ما عاهدوه عليه (٧٣) . وكانت طلائع المسلمين لم تكد تشرف على سَرْقُسطة حتى رُعب أسقفها بنسيو (Bencio) ومَنْ معه من الرُّهبان ، فجمعوا كتبهم المقدّسة وقرّروا الهجرة من البلد ، والفرار بهذه الذخائر ، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمّنهم ويعطيهم عهده ، فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة المدينة (٧٤) ، وفتحت المدينة البيضاء : سرقسطة أبوابها للمسلمين سنة خمس وتسعين الهجرية .

ولم يكد المسلمون يستقرون في سَرَقُسْطَة بعد فتحها ، حتى توجّه طارق وموسى إلى مناطق حول تلك المدينة وفتحا تلك المناطق ، كما فتحا

(٧٣) نفح الطيب (١/٢٥٥ ـ ٢٥٦) .

(٧٤) في فجر الاندلس (١٠٢) : ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند ماردة والسواقى ، ومادهمهم من ثورة اهل طليطلة ، مال بهم الى الشدة، فنراهم في غزوتهم هذه أميل الى العنف مما كانوا عليه قبل ذلك ، فبينما كان طارق يحتل المواقع احتلالا سلبيا ، فيؤمن اهلها ولا يأخذ الا ما كان من أملاك القوط وأملاك الكنيسة ، نسمع من الان فصاعدا عن نهب البلاد واحراقها ورعب اهلها وخروجهم منها على وجوههم ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة سياسة موسى ، وقد عرفناه شديدا قاسيا عظيم الميل الى المغانم والاسرى والسبايا ؛ هذا وان العرب انفسهم ـ وعلى رأسهم الخليفة ـ انكروا عليه هذا المسلك » كما ورد في : تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (١٠٠ ـ ١٠١) مثل هذا المعنى .

وما ورد في قصة الاسقف بنسيو في أعلاه ، يناقض هذا الرأى الذى مصدره المستشرقون ويعطى نموذجا واقعيا حياً لرحمة المسلمين للمغلوبين . فأذا ظهرت شدة من موسى في بعض المواقف ، فلان الموقف الحربي قد يتطلب ذلك ، انظر قادة فتح المغرب العربي (١/٢٦٦) .

مدناً أخرى في تلك الناحية : وشْقَة (٧٥) (Nuesca) ولاردَة (٧٦) (Lerida) وطَرَّكُوْنَة (٧٧) (Torragone) وبَرْشَلُوْنة (٧٨) (Bavcalona) (٧٩) . وأحبّ موسى سيره نحو البرت ، ولكن جنده روّعوا لما شاهدوه من قفر تلك النواحي وقلّة عمرانها،ثم إنّ أهلها كانوا يتكلمون اللغة الباسكية (لغة الباسك) ، فوقعت من جند موسى موقعاً غريباً ، وظنوا أنّهم لا يتكلمون (٨٠) ، وزهد المسلمون في هذه البلاد التي يسكنها قوم كالبهائم (٨١) . وحين أوغل موسى وجاوز سرقسطة ، اشتدّ ذلك على الناس وقالوا : « أين تذهب بنا ؟ ! حسبنا ما في أيدينا ! » ، وكان موسى قد قال حين دخل إفريقيّة وذكر عُقْبَة بن نافِع : « لقد كان غرّر بنفسه حين وغل في بلاد العدو ، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه . أما كان معه رجل رشيد ؟! » ، فسمعه حَنَش بن عبدالله الصَّنعانيّ في حينه ، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ من التغلغل عمقاً في الفتح ، قام حنش فأخذ بعنانه ، ثمّ قال : « أيّها الأمير ! إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن

(٧٥) وشقة : بليدة بالاندلس ، وتعد من الثغر الاعلى من ثغور الاندلس مع لاردة وغيرها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٢٣/٨) ونصوص عن الاندلس (٢٤) وجغرافية الاندلس واوروبا (٩٥) .

(٧٦) لاردة : مدينة مشهورة بالاندلس ، شرقي قرطبة ، تتصل أعمالها بأعمال طركونة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١٣/٧) .

(٧٧) طركونة : بلدة بالاندلس ، متصلة بأعمال طرطوشة ، وهي مدينة قديمة على شاطيء البحر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٤/٦) .

(٧٨) برشلونة : مدينة اندلسية مشهورة ، قريبة من طرطوشة ، انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٨٢ ــ ١٨٣) وجغرافية الاندلس واوروبا (٩٦ــ٩٩) .

(٧٩) فجر الاندلس (١٠٣) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (١٠١) ودولة الاسلام في الاندلس (٥٣/١) والتاريخ الاندلسي (٩٢) .

(٨٠) في البيان المغرب (١٨/٢) : « وفتح بلاد البشكنس واوغل في بلادهم ، حتى اتى قوما كالبهائم وغزا بلاد الافرنج » ، وانظر فجر الاسلام (١٠٣).

(٨١) البيان المغرب (٢٤/٢) والامامة والسياسة (٧٨/٢) وقادة فتح المغرب العربي (٢٦٦/١) .

نافع تقول : لقد غرّر بنفسه وبمن معه ، أما كان معه رجل رشيد ؟! وأنا رشيدك اليوم ! أين تذهب ؟ تريد أن تخرج من الدنيا ؟ ! أو تلتمس أكثر مما آتاك الله عزّ وجل ، وأعرض مما فتح الله عليك ، وجعل لك ؟! إني سمعت من الناس ما لم تسمع ، وقد ملأوا أيديهم وأحبّوا الدّعة » ، فضحك موسى ثمّ قال : « أرشدك الله وكثّر في المسلمين أمثالك » ، ثمّ انصرف قافلاً إلى الأندلس وهو يقول : « أما والله ، لو انقادوا إليّ ، لقدتهم إلى رومِيَّة (روما) ، ثمّ يفتحها الله على يديّ إن شاء الله » (٨٢) .

ولكن موسى ومعه طارق ، استطاعا أن يعيدا إلى رجالهما نشاطهم وحماستهم للفتح ، وبينما كانا يُعدّان العُدّة لفتح جِلِّيْقِيَّة(٨٣) ، إذ أتاه مُغيث الرّوميّ (٨٤) رسول الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان ، يأمره بالخروج من الأندلس ، والكفّ عن التوسّع في البلاد ، وأن يشخص إلى دمشق ، فساءه ذلك ، وقطع به عن إرادته ، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم يدخله المسلمون غير جِلِّيْقِيَّة ، فكان شديد الحرص على اقتحامها (٨٥) . وكان موسى قد أوفد عليّ بن رَباح (٨٦) ، وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين

---

(٨٢) الامامة والسياسة (٨٠ ــ ٨١) ، وانظر ما جاء حو لذلك في قادة فتح المغرب العربي (٢٦٦/١ ــ ٢٦٧) .

(٨٣) جليقية : ناحية قرب ساحل البحر المحيط ، من ناحية شمالي الاندلس، في أقصاه من جهة الغرب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٣١/٣) وتقويم البلدان (١٨٤ ــ ١٨٥) وجغرافية الاندلس وأوروبا (٧١ ــ ٧٣) .

(٨٤) مغيث الرومى : انظر ترجمته في كتابنا : قادة فتح الاندلس والبحار .

(٨٥) نفح الطيب (٢٥٨/١) .

(٨٦) على بن رباح : هو أبو عبدالله على بن رباح بن نصير اللخمي ، كان فاضلا جليلا من جملة التابعين ، يروى عن جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ، منهم عمرو بن العاص وولده عبدالله ، وعقبة بن عامر وأبو هريرة وعائشة أم المؤمنين زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جماعة يكثر تعدادهم ، وكان اذا انفرد يستذكر ما حفظ من أحاديث نبوية خوفا من نسيانها . ولد سنة خمس عشرة الهجرية،وكان أعور ،ذهبت عينه =

من عمره ، وهو من التابعين (٨٧) مع مغيث الرّوميّ مولى الوليد بن عبد الملك رسولين إلى الخليفة ينهيان إليه أخبار الفتوح ، يوم كان موسى في طُليطلة بعد أن استعاد فتحها من جديد ، وذلك سنة أربع وتسعين الهجرية ، فعاد إلى موسى بما أمره به الوليد .

ولكنّ قدوم مُغيث ، لم يصرف موسى عن المضيّ في إتمام هذه الفتوح التي صاحبها التوفيق إلى هذه السّاعة ، فبذل جهده للبقاء في الأندلس بعض الوقت . ريثما يتمّ فتح جلّيقيّة ، ولاطف مغيثاً من أجل ذلك ، وسأله إمهاله إلى أن ينفّذ عزمه في فتح جلّيقيّة . والمسير معه أياماً ، ويكون شريكه في الأجر والغنيمة ، ففعل مغيث ومشى معه(٨٨) . وقد وهب مغيثاً القصر الذي ينسب إلى مغيث في عهد المسلمين . وهو : (بلاط مغيث) ، وهو قصر حاكم قرطبة السابق ، بجميع أرضه من أرض الخمس(٨٩) . نظير إمهاله بعض الوقت ومصاحبته

يوم الصواري في البحر مع عبدالله بن سعد سنة اربع وثمانين الهجرية . وكانت له مع عبدالعزيز بن مروان منزلة ، وهو الذى زف أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان الى الوليد بن عبدالملك ، ثم عتب عليه عبدالعزيز ، فأغزاه افريقية ، الى ان توفى بها ، ويقال : ان وفاته كانت في سنة أربع عشرة ومائة الهجرية . وقيل توفى سنة سبع عشرة ومائة الهجرية ، انظر التفاصيل في : تاريخ علماء الاندلس (١/٣١٠) رقم ٩١٥ ورياض النفوس (١/٧٧ ـ ٧٨) ونفح الطيب (١/٢٦٠ ـ ٢٦١) ، وانظر الامامة والسياسة (٢/٧٥ ـ ٧٦) حول ايفاده الى الوليد بن عبدالملك من قبل موسى بن نصير .

(٨٧) دخل الاندلس اربعة من التابعين هم : على بن رباح اللخمي ، وأبو عبدالرحمن عبدالله بن زياد الحبلي ، وحنش بن عبدالله الصنعاني ، وحيوة بن رجاء التميمي . وفي بغية الملتمس (٥١) : محمد بن أوس الانصاري وهو من التابعين غزا الاندلس مع موسى بن نصير ، وانظر تاريخ علماء الاندلس (١/٣١٠) . هذا بالاضافة الى موسى بن نصير الذى كان من التابعين أيضا .

(٨٨) نفح الطيب (١/٢٥٨) .

(٨٩) الرسالة الشريفية في الاقطار الاندلسية (٢٠٤) .

في غزو جليقيّة . وقبل مغيث هذه الشروط ، فلما اطمأنّ موسى إلى ذلك ، بادر بالسير شمالاً لفتح قَشتالَة(٩٠) القديمة (old Castille أو Casulla le vieja) ، تأميناً للحدود الشماليّة لاقليم طُليطلة (٩١) .

والحديث عن إقناع مغيث بالغنيمة والقصر لإبقاء موسى على رأس جيشه، ليستكمل تحقيق أهدافه في الفتح ، ليس من السهل تصديقه ولا قبوله ، فهو رشوة لتأجيل تنفيذ أمر الخليفة الواضح الصريح ، وقد كان مغيث قوياً أميناً لايقبل الرشوة ولا يرتضى لنفسه مخالفة أوامر الخليفة الصريحة الواضحة ، والذي يبدو أنّ الخليفة أمر مغيثاً أن يُشخص موسى معه إلى دمشق ، دون أن يأمره باشخاصه فوراً ، فكان لمغيث أن يتصرف في أمر موسى بحريّة مطلقة ، فرأى أنّ الموقف العسكري يتطلّب بقاء موسى ردحاً من الزمن في الأندلس ، لاستكمال فتوحاته ، واقتنع برأي موسى بضرورة بقائه لغزو منطقة جِلِّيْقيَّة ، حتى لايتعرّض إقليم طليطلة لتعرض قوطيّ متوقّع ، كما لم يجد مغيث محذوراً من بقاء موسى في قيادته ، فلا اعتراض لموسى على أمر الخليفة، كما لايستطيع أن يعترض ، فكان لبقاء موسى فائدة للفتح دون ضرر على الخلافة، لذلك اقتنع مغيث بالسير مع موسى ومرافقته في فتحه ، فكانت الغنيمة والقصر جزاء جهاده لا جزاء تراخيه في تنفيذ أمر الخليفة أو جزاء التخلّي عن التنفيذ .

والغريب أنّ المستشرقين ركزّوا على هذه الفرية وبالغوا في شرحها وتوضيحها وتسليط الأضواء عليها ، فصوّروا في هذا الفصل مغيثاً متواطئاً مع موسى على الخليفة ، ثم صوّروه في الفصل الثاني عدواً لدوداً لموسى ، يشّنع على موسى

(٩٠) قشتالة : اقليم عظيم بالاندلس ، قصبته اليوم طليطلة ، انظر معجم البلدان (٩٣/٧) وجغرافية الاندلس واوروبا (٣٢) .

(٩١) Saavedrw. op. Cit. p. 113-114.

لدى الخليفة ، نتيجة لأنّه كان يرى نفسه أحقّ من موسى بتولي الأندلس . وليس ذلك من خلق التابعين وتابعي التابعين ، ولاكان الدسّ والافتراء والكذب والحسد والرشوة من أخلاقهم ، فأذا لم يكن ذلك مقنعاً للمؤرخ الذي تتبع خلق أولئك الرجال ، فالتناقض المكشوف في موقف مغيث بحسب ادعاءات المستشرقين ، لابدّ أن يكون مقنعاً ، إذ كيف يمكن أن نصدق أنّ مغيثاً يفترى ما يفترى على موسى بحضور الخليفة ، ثم يسكت عنه موسى في تقاضيه الرشوة لقاء تراخيه في تنفيذ الأمر الخليفي ؟ وهل من المعقول أن يعفو الخليفة عن المتراخي في تنفيذ أمره لقاء رشوة معروفة وليست سرّا .

وبالطبع استفاد المستشرقون من المصادر الاسلامية في ترويج هذه الادعاءات ، وما ذلك أراد مؤلفوها .

وسنرى سبب استدعاء موسى إلى دمشق وشيكا ، حيث لانجد محلّا لمثل هذه التخرّصات .

وكان يتفرّع من سَرْقُسْطَة طريقان رومانيان يتّجهان من الشرق إلى الغرب : الأول يذهب بحذاء نهر إبْرُه (٩٢) (Ebro) — (الأبرو) حتى هارو (Haro) . ومن هناك يتبع بروفيسكا (Barivlesca) ثم أمَايَة (٩٣) . ثم لِيُوْن (٩٤) واسترقة . والثاني ينفصل من الطريق الأول

---

(٩٢) نهر ابره : ويقع في شمال شرقي الجزيرة الايبيرية ، ويصب في البحر الابيض المتوسط عند طرطوشة ، انظر جغرافية الاندلس واوروبا (٥٧) .

(٩٣) اماية : احدى المدن الاندلسية . وهي احدى مدن الجزء الثالث بحسب تقسيمات الاندلس القديمة ، وهى : (Amayo) ، انظر جغرافية الاندلس واوروبا (٦٢) .

(٩٤) ليون : مدينة بالاندلس في منطقة جليقية . انظر التفاصيل في تقويم البلدان (١٨٤ — ١٨٥) .

عند بدايته ، ويتّجه نحو قَلُوْنية وبَلَنْسِيَة (٩٥) ، ويلتقى بالطريق الممتد من ماردة إلى أسترقة في مدينة بنا فنتي ، وكان لابدّ لموسى من السير في كلّ من هذين الطريقين ، فقسم جيشه قسمين : قسم بقيادته ، والآخر بقيادة طارق .

واختار موسى الطريق الثاني ، وعهد إلى طارق بالسّير في الطريق الأول ، أدنى سفوح جبال كَنْتَبْرِيَة ، وشرع طارق بمهاجمة البشكنس (٩٦) غربي نهر إبره . فلم يجد صاحب الناحية فُرْتُوْن (Fortunius) بدّاً من الدخول في طاعة المسلمين ، بل اعتنق الاسلام ، ومنه تسلسل بنو قَسِيّ (٩٧) أصحاب الثغر الأعلى (٩٨) الذين لهم ذكر كثير في تاريخ الأندلس ، ثم تابع طارق سيره . واستولى على أمَايَة وأسترقة اللتين ذكرهما قسم من المؤرخين خطأ في حملة طارق التي كانت سنة اثنتين وتسعين الهجريّة (٩٩) (٧١١م) ، كما فتح مدينة ليون (١٠٠) في هذه السنة أيضاً .

---

(٩٥) بلنسية : كورة ومدينة بالاندلس شرقى قرطبة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٧٩) وتقويم البلدان (١٧٥ ــ ١٧٩) .

(٩٦) البشكنس : الباسك .

(٩٧) بنوقسى : كان قسى قومس الثغر في ايام القوط . فلما افتتح المسلمون الاندلس التحق بالشام ، واسلم على يدى الوليد بن عبدالملك ، فكان ينتمي الى ولائه ، فولد قسى فرتون ، وبنو قسى من المولدين ، انظر التفاصيل في جمهرة انساب العرب (٥٠٢ ــ ٥٠٣) ، وانظر نشاطهم فى الاندلس فى كتاب : نصوص عن الاندلس (٣٢ و ٣٥ و ٤٠ و ٤١ و٤٩ و١٦٥) .

(٩٨) الثغر الاعلى : ويشمل سرقسطة عاصمة هذا الثغر ، ولاردة وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وغيرها وكان هذا الثغر يواجه برشلونة ومملكة نافار ، وتمثله اليوم منطقة اراغون (Aragon) ، راجع الاثار الاندلسية (٧٨) والحلل السندسية (١/٢٠٦) و (٢/١١٤) وجغرافية الاندلس واوروبا (٩٥) .

(٩٩) انظر فجر الاندلس (١٠٤) .

(١٠٠) تاريخ افتتاح الاندلس (٣٥) واخبار مجموعة (١٥) .

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية لنهر إبره في إقليم قَشْتَالة (١٠١)، فأطاعه معظم من مَرّ بهم من رؤساء هذه المناطق . وقد لقي مقاومة عند قرية تسميها بعض المراجع بارو أو بازو في مقاطعة بلد الوليد الحالية (١٠٢) (فاليا دوليد Valladolid) ، ولم يلبث أن تغلّب عليها ، ثم سار متابعاً فتوحه . وبدلاً من أن يعرِّج على أسترقة ليلتقي فيها بجيش طارق ، انحرف إلى الشمال واخترق باب تارنا (Tarna) ، وسار متابعاً مجرى نهر النالون (Nalqn) ، ثم حطّ رحاله عند قلعة لُكْ (Lucus Asturum) الرومانية و(moria de Lugo) غير بعيد عن أُبِيْط (Oviedo) ، ومازال بها حتى فتحها . وسار موسى حتى بلغ خيخون (Gijsn) وأقرّ بها حامية وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد في هذه النواحي البعيدة ، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة بلاي (Pasa de Pelayo) على البحر الأخضر (١٠٣) . فطاعت الأعاجم ، ولاذوا بالسلم وبذل الجزية ، وسكنت العرب المفاوز . وكان العرب والبربر كلمّا مرّ قوم منهم بموضع استحسنوه ، حطوّا به ونزلوه قاطنين (١٠٤) .

وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط . فاطمأنّ إلى أنّه فتح شبه الجزيرة كلّها . لذلك شعر أنه لم يَعُد هناك أي معنى للاسترسال في الفتح . وكان موسى يخلف في كلّ مدينة وقلعة يفتحها حامية من المسلمين ، فتفرّق جنده . وطال السَّير بمن بقي منهم معه ، ونال منهم الجهد . فمالت

---

(١٠١) أخبار مجموعة (٢٨) . وقد جعل هذا المصدر فتح هذه الحصون الثلاثة في سنة (٧١١م) . وهو خطأ واضح . انظر فجر الاندلس (١٠٤) .

(١٠٢) قشتالة : اقليم عظيم بالاندلس . عاصمته طليطلة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٣/٧) .

(١٠٣) هو المحيط الاطلسي . وكان يسمى أيضا : الاقيانوس ، وبحر الظلمات .

(١٠٤) نفح الطيب (٢٥٨/١) وانظر فجر الاندلس (١٠٤ ــ ١٠٥) وتاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (١٠٢ ــ ١٠٣) .

نفوسهم إلى العودة ، لذلك اكتفى موسى بوصوله إلى خيخون ، وأزمع العودة ، وهو يعلم أنّ أعدادا كبيرة من القوط قد تراجعوا أمامه واجتمعوا في نواحي أشتوريش وجِلِّيقيَّة . وأنهم يكوِّنون الخميرة الأولى لاستعادة الأندلس من المسلمين في المستقبل ، كما حدث ذلك فعلاً ، ولو لم يشتغل العرب عن البقيّة الباقية من القوط بعد ذلك بحروب ومنازعات قبليّة فيما بينهم ، لاستطاعوا القضاء عليهم بسهولة ويسر ، ولكنّ العرب شُغلوا بأمور أنفسهم ، فاستطاعت هذه الحفنة القوطيّة أن تطمئن في هذه النواحي القاصية القاحلة ، وأن تنمو بالتدريج وتقوى وتشتد ، لتنتهز في المسلمين كلّ فرصة تسنح ، ولتستعيد ما تستطيع استعادته مرحلياً من الأندلس كلّما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ومن الواضح جداً ، أنّ موسى ترك جبهة القتال مُكرهاً لا بمحض إرادته ، فقد كان الخليفة يريد عودته إلى دمشق ، وكان مغيث يتربّص به ليتولى العودة معه ، فلما انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحدّ القصيّ في نظر الخليفة ومغيث ، كان لابدّ له أن يعود ، لا إلى طُليطلة أو قُرطبة فقط ، بل إلى دمشق رأساً ، فقد كان مغيث الرومي رسول الخليفة يتعجله ، وكان الوليد بن عبدالملك معجلاً عليه لا يريد أن يتمهّل ، إذ أن رسولاً آخر من الوليد ، يكنى : أبا نَصْر ، بعثه إلى موسى ، عندما استبطأه في القفول ، فأتاه وهو في مدينة لُكْ بناحية جلِّيقية (١٠٥) .

---

(١٠٥) نفح الطيب (١/٢٥٨) ، وفي فجر الاندلس (١٠٦) ورد : « حتى لتذهب الروايات ، الى أن الوليد ، بعثه اليه رسولا آخر اسمه : ابو نصر ، لقيه في لك ، فأخذ بعنان فرسه ، وأمره بالعودة ، وذلك أمر مستبعد ، لأن مغيثا وصل وموسى في سرقطة في أوائل الربيع ، ولما تنقض على وصوله ثلاثة اشهر ، ولا يتفق ان يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة ، فأرسل يتعجل ، وربما كان أبو نصر هذا كنية لمغيث كما يظن جايانجوس . واقول : قد وردت ترجمة مغيث =

وهناك بعض المؤرخين ، يذكرون أنّ موسى بن نُصَير ، بعد أن افتتح سرقسطة ، بعث سراياه إلى قطالونة ، ففتحت بَرْشَلُوْنَة (١٠٦) ، ومن

= الرومي في نفح الطيب (٤/١١ ـ ١٣) وفي غيره في المصادر ، وهو لا يكتى : أبا نصر في تلك المصادر كلها . ولماذا نستبعد قدوم الرسول الاخر الذى أرسله الوليد الى موسى ، وقد انقضت على وصول الرسول الاول ثلاثة أشهر ، وهى مدة طويلة ، وبخاصة بعد ما استقر في ذهن الوليد انه يريد أن يشق عصا الطاعة ، انظر الامامة والسياسة (٢/٧٥ ـ ٧٦) ، وأن موسى يطمع في فتح غالة والوصول الى رومة ، انظر الامامة والسياسة (٢/٨١) ، بل الوصول الى أرض الشام عن طريق افرنجة (فرنسا) ؛ انظر نفح الطيب (١/٢٥٩) ، في الوقت الذى سئم المسلمون فيه الفتح واظهروا رغبتهم في العودة الى قرطبة ؟؟
لقد كان الخليفة الوليد بن عبدالملك حريصا غاية الحرص على سلامة المسلمين ، فعارض منذ البداية في اقحامهم في بحر شديد الاهوال ، فلما علم بما شرع به موسى من فتح غالة ، اشتد قلقه وارسل أبا نصر رسولا ثانيا الى موسى يستعجله القفول الى دمشق ، واذا كان مغيث قد وافق على اكمال موسى لفتوحه ، فلان مغيثا قائد يقدر اهمية الوقف العسكري تقديرا عاليا ويقدر اهمية اكمال الفتح لحاضر المسلمين ومستقبلهم في الاندلس . أما أبو نصر ـ كما يبدو ـ فلم يكن قائدا ، وهو منفذ قوى أمين للاوامر . شديد الضبط والربط ، لا يقبل بعذر ولا ينصت اليه . فمن الواضح ان أبا نصر شخصية ثانية غير مغيث ومختلفة عنه كل الاختلاف . وفي نفح الطيب (١/٥٨) نص صريح وهو : « وقفل معهم ـ اى مع موسى وطارق ـ الرسولان : مغيث وأبو نصر » ، انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس (١٠٣ ـ ١٠٤) وقادة فتح المغرب العربي (١/٢٧٠ ـ ٢٧١) .

(١٠٦) برشلونة : وتسمى ايضا : برشنونة . وهي مدينة مصاقبة للاندلس وقريبة من طرطوشة ، تقع في شمال شرقي الاندلس ، على البحر الابيض المتوسط . ويعتبرها بعض جغرافيي العرب ، انها ليست من الاندلس . انظر تقويم البلدان (١٨٢ ـ ١٨٣) ، ويراها بعضهم انها من الاندلس . انظر جغرافية الاندلس واوروبا (٩٦) . والثاني هو الصواب فهى من الاندلس . وتكسر الشين في برشلونة . عند بعض الجغرافيين العرب .

هناك اخترقت جبال البرتات (البرانس) وتوغّلت في بلاد غالة (١٠٧) ، فاستولت على أَرْبُوْنة (١٠٨) (Narbonne) وصخرة إينيون (Avignin) وحصن لودون على وادي ردونة . وهو وادي نهر الرُّون (١٠٩) . ولا نستبعد أن تكون بعض قوّات موسى قد افتتحت برشلونة ولاردة وجزء من إقليم قطالونية ، وأنّها قد وصلت إلى جبال البرتات واجتازتها إلى قَرْقَشُوْنَة (١١٠) ، فهو نفس الطريق الذي اتّبعه السَّمْح ابن مالك (١١١) . بعد ذلك بسنوات ،ولكنّ فتح موسى هذا لم يكن فتحاً مُسْتَداما . إنّما كان فتحاً وقتيّاً بقوات استطلاعية خفيفة ، استطاعت جمع المعلومات عن تلك المنطقة من بلاد فرنسا ، تمهيداً لفتحها فيما بعد (١١٢)

---

(١٠٧) الغال : بلاد الغال (Gaul, Gallia) ، وهى تمثل قسما كبيرا من فرنسا او جنوبها احيانا ، وكان يسمونها : غاليوش ، انظر جغرافية الاندلس واوروبا (٥٩) .

(١٠٨) اربونة : مدينة في شمال شرقي قرقشونة ، تقع على الساحل الفرنسي الجنوبي ، انظر ما جاء عنها في تقويم البلدان (١٨٢ ــ ١٨٣) .

(١٠٩) نفح الطيب (٢٥٦/١) .

(١١٠) قرقشونة : وهى (Carcassonne) بلد في جنوبى فرنسا قريبة من حدود اسبانيا الشمالية ، وفي معجم البلدان (٥٩/٧) : أن المسافة بين قرقشونة وقرطبة خمسة وعشرون يوما . وفي نفح الطيب (٢٦٠/١) : أن موسى انتهى الى حصن من حصون العدو يقال له : قرقشونة ، وانظر تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط (١٤) ــ الامير شكيب ارسلان ــ مصر ــ ١٣٥٢هـ . وفي نفح الطيب (٢١٨/١) وابن خلدون (١١٧/٤) : أن موسى توغل في الاندلس الى برشلونة من جهة الشرق واربونة في الجوف ، ويعتبر البكرى مدينة قرقشونة من الجزء الاول الاندلسي ، انظر جغرافية الاندلس واوروبا (٦٠) .

(١١١) السمح بن مالك : سترد ترجمته في كتابنا : قادة فتح الاندلس

(١١٢) في البيان المغرب (٢٤/٢) ونفح الطيب (٢٥٩/١) ، أن موسى انتهى الى صنم ، فوجد فى صدره مكتوبا : يا بني اسماعيل ! الى هنا ــ

الانســـان

١ ـ عــودة القائدين الى دمشــق

أ ـ العــودة :

بادر موسى بالعودة من لُكْ بجلِّيقيَّة مع أبي نَصْر الرّسول الثاني للوليد بن عبدالملك ، وكان مع أبي نصر رسالة من الوليد إلى موسى ، يوبِّخ الوليد بها موسى ، ويأمره بالخروج من الأندلس ، وألزم رسوله إزعاجه (١١٣) ، فأخذ موسى في طريق العودة أواخر سنة خمس وتسعين الهجريّة (منتصف صيف ٧١٤ م) (١١٤) . وفي طريقه من لُكْ ، التقى بطارق الذي كان عائداً من حملة له على منطقة أراغون (Aragon)

= منتهاكم . واذا سألتم : الى ماذا ترجعون ؟ اخبرناكم : ترجعون الى اختلاف ذات بينكم حتى يضرب بعضكم رقاب بعض » ، ومن الواضح، ان هذه اسطورة من الاساطير . وهى قصة خرافية ، نسجت بعد ، تقريراً لما حدث بين الفاتحين فعلا . وادى بهم الى ضياع الفردوس المفقود (الاندلس) منهم ، وخروجهم منها أذلاء مغلوبين حين تفرقوا واختلفوا وتخلوا عن عقيدتهم التي قادتهم للنصر ، فأصبحوا مسلمين جغرافيين ، لا مسلمين حقيقيين ، وعربا من قوارير أو بالجنسية حسب ، لاعربا حقا ، وكانوا قد دخلوها أعزاء فاتحين منتصرين متحدين موحّدين، متمسكين بعقيدتهم مضحين في سبيلها بالغالي والرخيص ، فكان بأسهم على اعدائهم شديدا فانتصروا وعزوا ، فأصبح بأسهم بينهم شديدا ، فاندحروا وذلوا .

تلك هى عبرة الاسطورة للمسلمين اليوم وغدا ، فهى في معناها واقع مرير قد حدث ، وهى في مبناها اسطو ة من الاساطير .

(١١٣) نفح الطيب (٢٥٨/١) .

(١١٤) كانت مغادرة موسى من اشبيلية الى شمالي افريقية في شهر ذى‌الحجة من سنة خمس وتسعين الهجرية (من ـ سبتمبر ـ ٧١٤) .

في الثغر الأعلى (١١٥) فسار الاثنان معاً إلى طليطلة ، أما غالبيّة جنودهما ، ففضّلوا البقاء في المدن والأرياف المفتوحة ، حيث استقروا وأقاموا منازلهم(١١٦). ومرّ موسى بطليطلة وقرطبة في طريقه إلى إشبيلية ، حيث عيّنَ هناك ابنه عبدالعزيز (١١٧) والياً على الأندلس ، وترك معه مساعدين من أمثال حبيب ابن أبي عُبَيْدة الفِهْري(١١٨) وكثيراً من القادة المسلمين الآخرين مع رجال قبائلهم ، ليدافعوا عن البلد ويحموه (١١٩) . وقد اختار موسى إشبيلية عاصمة للبلاد ، وذلك بسبب قربها من البحر والمضيق ، كما جعلها أيضاً قاعدة بحرية للمسلمين في الأندلس (١٢٠) .

وركب موسى البحر ، ومعه طارق ومغيث الرّوميّ وأبو نصر وكبار الجند ، في شهر ذي الحجّة من سنة خمس وتسعين الهجرية (أيلول – سبتمبر – ٧١٤ م) ، ومعهم يوليان ، وقد أبحر موسى ومَن معه من إشبيلية ، وهو متلهّف على الجهاد الذي فاته ، آسف على ما لحقه من إزعاج ، وكان يؤمّل أن يخترق ما بقي عليه من بلاد إفرنجة (فرنسا) ، ويقتحم الأرض

(١١٥) الثغر الاعلى : ويشمل سرقسطة عاصمة هذا الثغر ، ولا ردة ، وتطيلة ، ووشقة ، وطرطوشة ، وغيرها ، وكان هذا الثغر يواجه برشلونة ومملكة نافار ، وتمثله اليوم منطقة اراغون ، انظر جغرافية الاندلس وأوروبا (٦٥) .

(١١٦) نفح الطيب برواية ابن حيان (٢٧٦/١) و عبدالعزيز بن موسى ابن نصير : سترد ترجمته المفصلة في كتابنا : قادة فتح الاندلس .

(١١٧) ورد اسمه في البيان المغرب (٣٠/٢) : حبيب بن ابي عبدة بن عقبة ابن نافع ، وكذلك في المعجب من تاريخ المغرب (٣٤) . اما في تاريخ افتتاح الاندلس (٣٦) ، فقد ورد اسمه : حبيب بن ابى عبيدة .

(١١٨) اخبار مجموعة (١٩) وفتح الاندلس (١٧) وابن الاثير (٥٦٦/٤) والمراكشي (٨) والبيان المغرب (٢٣/٢) والنويري (٢٩/٢٢) وابن خلدون (٢٥٥/٢) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٢٧٦/١) والرسالة الشريفية (٢١٠) .

(١١٩) اخبار مجموعة (١٩) ونفح الطيب برواية ابن حيان (٢٧٦/١) والرسالة الشريفية (٢١٠) ، وهى .

(١٢٠) اخبار مجموعة (١٩) ونفح الطيب (٢٧٦/١) .

الكبيرة حتى يصل بالناس إلى الشّام ، مؤمِلاً أن يتّخذ مُخْتَرَقَه (١٢١) بتلك الأرض طريقاً مُهْيَعاً (١٢٢) ، يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من المشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً (١٢٣) .

وتذهب بعض المصادر العربية ، إلى أنّ موسى استصحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى ، وفي ذلك مبالغة واضحة ، فهذا العدد الضخم من الأسرى ، يحتاج إلى وسائط نقل هائلة لنقلهم برّاً وبحراً من الأندلس إلى دمشق ، ويحتاج إلى تدابير إدارية من الصّعب جداً تحقيقها ، والغالب أنّ عدداً قليلاً جداً من الأسرى رافق موسى في رحلته هذه ، وأما الباقون منهم ، فقد تُركوا في المزارع يزرعونها ويُديمونها ، وفي الأعمال الادارية الأخرى يديرونها ويدبّرون أمرها ولكنّه استصحب معه مائة رجل من أشراف الناس : من قريش . ومن الأنصار ، ومن سائر العرب ومواليها . وأخرج معه من وجوه البربر مائة رجل : منهم أبناء كسيلة ، وملك السّوس الأقصى . وملك قلعة أوساف . وملك ميورقة ومنورقة ، ومعه الغنائم من الذهب والفضّة والجوهر ، محمولة على ثلاثين ومائة عجلة (١٢٤) ، فكان مع موسى أربعمائة رجل (١٢٥) . بل هناك رواية أنّ موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط ، ألبسهم أفخر الثياب ، وسار بهم في موكبه ، ليدلّ على عظم الفتح الذي تمّ على يديه (١٢٦) .

---

(١٢١) مخترقة : اى المكان الذي يخترقه ، اى يسلكه ويجتاز البلاد منه .
(١٢٢) مهيعاً : الواضح البين . وهو ايضاً الواسع المنبسط .
(١٢٣) انظر نفح الطيب (١/٢٥٩) .
(١٢٤) انظر التفاصيل في : الامامة والسياسة (٢/٨٢) .
(١٢٥) تاريخ افتتاح الاندلس (٣٦) .
(١٢٦) انظر : فجر الاندلس (١٠٧) .

واستخلف موسى ابنه عبدالله على إفريقية ، وابنه مروان على طَنْجَة والسّوس (١٢٧) ، فمرّ بطريق عودته بالقيروان (١٢٨) ، ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين الهجرية (كانون الأول – ديسمبر – ٧١٤ م) ، فأقام هناك ثلاثة أيام ، يأتيه أهل مصر في كلّ يوم ، فلم يبق شريف إلاّ وقد أوصل إليه موسى صلة ومعروفاً كثيراً ، وأهدى لولد عبدالعزيز بن مروان فأكثر لهم ، وجاءهم بنفسه فسلّم عليهم ، ثمّ سار متوجّهاً حتى أتى فلسطين (١٢٩) .

ولما قدم موسى ومعه طارق إلى الوليد بن عبدالملك في دمشق ، كان قدومه عليه وهو في آخر شكايته التي تُوفي فيها ، إذ بلغا دمشق سنة ست وتسعين الهجريّة (كانون الثاني – يناير – ٧١٥ م) أي قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً (١٣٠) ، وتُوفى الوليد في الخامس عشر من جمادى الثانية من سنة ست وتسعين الهجرية (٢٥ شباط – فبراير – ٧١٥ م) ، فخلفه في الحكم أخوه سليمان بن عبدالملك الذي كان مستاء أيضاً من موسى ،

---

(١٢٧) ابن حبيب (٢٣١ – ٢٣٢) وفتح مصر وافريقية (٢١٠) واخبار مجموعة (١٩) وفتح الاندلس (١٨) وابن الاثير (٥٦٦/٤) وابن الكردبوس (٥٠) وابن الشباط (١٢٣) والبيان المغرب (١٨/٢ – ١٩ و ٤٤) ونفح الطيب (٢٧٧/١) .

(١٢٨) المعجب في تلخيص اخبار المغرب (٣٤) .

(١٢٩) الامامة والسياسة (٨٢/٢ – ٨٣) .

(١٣٠) فجر الاندلس (١٠٧) ، ولم تكن مقابلة الوليد لموسى مقابلة حسنة بسبب تماديه في سياسته في أثناء فتح الاندلس ، وتباطؤه في اطاعة أوامر الخلافة ، انظر ابن الاثير (٥٦٦/٤) والنويري (٣٠/٢٢) وابن الكردبوس (٥٠) .
وانظر كذلك : Chr. 754. p. 149. (No.4)
وسترد اسباب مقابلة الوليد لموسى بجفاء ، واسباب سحبه وسحب طارق معه من الاندلس الى دمشق وشيكا .

فتروى المصادر أنّه حينما اقترب موسى من بلاد الشام ، كتب إلى موسى ، يأمره بتأخير وصوله إلى دمشق ، حتى يموت الوليد ، وبذلك يتسنى لسليمان الحصول على الكنوز التي جلبها موسى معه ، وينال فخر الفتح لنفسه . ولكنّ موسى أهمل طلب سليمان ، وتقدم إلى دمشق (١٣١) . وكان سليمان بعث إلى موسى من لقيه في الطريق قبل قدومه على الوليد ، يأمره بالتريث في مسيره ، وألا يعجل ، فإنّ الوليد باخر رمقه ، فقرأ موسى الكتاب ، وقال : « خنت والله وغدرت وما وفيت ! والله لا تربّصتُ ولا تأخرّت ولا تعجّلت ! ولكني أسير بمسيري ، فإن وافيته حيّاً لم أتخلّف عنه ، وإن عجلت منيّته فأمره إلى الله » ، فرجع الرسول إلى سليمان ، فأعلمه (١٣٢) . وقد أبى موسى أن يتجاوب مع سليمان ، لأنّ دينه منعه من هذا التجاوب . فقدم على الوليد وهو حيّ ، فسلّم له الأخماس والمغانم والتُحف والذّخائر . فلم يمكث الوليد إلا يسيراً بعد قدوم موسى حتى تُوفي ، واستُخلف سليمان ، فحقد عليه وأهانه (١٣٣) .

وقيل : إنّ موسى وصل إلى دمشق بعد وفاة الوليد ، فقدم على سليمان حين استُخلف (١٣٤) .

والصّواب ، هو أنّ موسى وطارقاً وصلا إلى دمشق قبل موت الوليد ، وكان الوليد مريضاً ، فمثُلَ موسى بحضرة الوليد ، ولكن الوليد لم يقابله مقابلة حسنة بسبب تماديه في سياسته في أثناء فتح الأندلس ، وتباطؤه في

---

(١٣١) ابن الكردبوس (٥٠) والبيان المغرب (٢٠/٢) ونفح الطيب (٢٨٠/١ ـ ٢٨١) .

(١٣٢) الامامة والسياسة (٨٣/٢) ، وانظر البيان المغرب (٢٥/٢) .

(١٣٣) نفح الطيب (٢٦٢/١) وانظر تاريخ افتتاح الاندلس (٣٦)

(١٣٤) فتوح مصر والمغرب (٢٨٤) ، وانظر المعجب في اخبار المغرب (٣٥/١) .

في إطاعة أوامر الخلافة (١٣٥) ، وكان مع موسى وطارق كميّات هائلة من الغنائم والأسرى والهدايا الثمينة من الذّهب والفضّة واللؤلؤ ، كما حملا أيضاً (المائدة) المشهورة وكثيراً من الكنوز الأندلسيّة الأخرى . ولكنّ الظّاهر أنّ قلب الوليد كان متغيّراً على موسى تغيّراً لا سبيل إلى إصلاحه ، لذلك لم يُحسن الوليد لقاء موسى ، ثم لم يلبث الوليد أن لقي ربّه وخلفه أخوه سليمان ، وهو أشدّ غضباً من أخيه على موسى ، ولهذا كان طبيعيّاً ألاّ ينتظر موسى خيراً كثيراً من سليمان ، وأن يُدرك أنّ أيام مجده وعزّه قد مضت مع أمس الدابر (١٣٦) .

بيد أننا نستبعد صحّة ما يبالغ به قسم من المؤرخين من أفاعيل سليمان بموسى ، فمن المستبعد ما يقال : إنّ سليمان كان يقيم موسى في الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شدّة التعب والجهد والحر (١٣٧) ، وأنّ سليمان حبسه وأمر بتقصي حسابه (١٣٨) ، فأغرمه غرماً عظيماً كشفه فيه ، حتى اضطرّ إلى أن سأل العرب معونته ، فيقال : إنّ لَخْماً (١٣٩) حملت عنه من أعطيتها تسعين ألفاً ذهباً ، وقيل : حمّله سليمان غرم مائتي ألف ، فأدّى مائة ألف وعجز ، فاستجار بيزيد بن المُهَلّب (١٤٠) ، فاستوهبه من سليمان ، فوهبه إيّاه ، إلاّ أنه عزل ابنه عبدالله عن إفريقية (١٤١) ،

(١٣٥) ابن الاثير (٥٦٦/٤) والنويري (٣٠/٢٢) وابن الكردبوس (٥٠) .
(١٣٦) قادة فتح المغرب العربي (/٢٧٩) .
(١٣٧) انظر التفاصيل في الامامة والسياسة (٨٤/٢ ــ ٨٥) .
(١٣٨) تقصى حسابه : اى تتبعه وشدد البحث عنه لتعرف حقيقته ، انظر ما جاء حول ذلك في نفح الطيب (٢٦٢/١) .
(١٣٩) بنو لخم : هو مالك بن عدى بن الحارث بن مرة بن ادد بن زيد بن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ ، انظر جمهرة انساب العرب (٤١٨ ــ ٤٢٢) ، وكان موسى من بني لخم .
(١٤٠) يزيد بن المهلب بن أبى صفرة : انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد ما وراء النهر ــ مخطوط .
(١٤١) نفح الطيب (٢٦٢/١) .

وأن سليمان ألزم موسى أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها مالاً يفتدى به نفسه ، حتى لقد كان يستجدي الدرهم والدرهمين ، فيفرح بذلك موسى ، ويدفعه إلى الموكلين به ، فيخفّفون عنه العذاب (١٤٢) ، لأن سليمان لو كان

---

(١٤٢) انظر التفاصيل في نفح الطيب (١/٢٦٥ ـ ٢٦٦) ، وفي الامامة والسياسة (٢/٨٤ ـ ٨٥) : « لما افضت الخلافة الى سليمان بن عبدالملك، بعث الى موسى ، فأتى به فعنفه بلسانه ، فكان مما قال له يومئذ : اجترأت ، وامرى خالفت ، والله لأقللن عددك ولأفرقن جمعك ، ولأبددن مالك ، ولأضعن منك ما كان يرفع غيرى ممن كنت تمنيه أماني الغرور ، وتخدعه من آل أبى سفيان ، وآل مروان ! فقال له موسى : والله يا امير المؤمنين ، ما تعتل علىّ بذنب ، سوى انى وفيت للخلفاء قبلك ، حافظت على من ولى النعمة عندى فيه . فأما ما ذكر امير المؤمنين ، من انه يقل عددى ويفرق جمعى ، ويبدد مالى ، ويخفض حالي ، فذلك بيد الله والى الله ، وهو الذى يتولى النعمة على الأحسان الىّ ، وبه استعين ، ويعيذ الله عز وجل امير المؤمنين ويعصمه أن يجرى على يديه شيئاً من المكروه لم أستحقه ولم يبلغه ذنب اجترمته ، فأمر سليمان أن يوقف في يوم صائف شديد الحر على طريقه ، وكانت بموسى نسمة (ربو) ، فلما اصابه حر الشمس واتعبه الوقوف ، هاجت عليه ، وجعلت قرب العرق تنصب منه ، فمازال كذلك حتى سقط ، وكان عمر بن عبدالعزيز حاضراً ، الى أن نظر سليمان الى موسى ، وقد وقع مغشياً عليه ، قال عمر بن عبدالعزيز : ما مر بى يوم كان أعظم عندي ، ولا كنت فيه أكرب من ذلك اليوم ، لما رأيت من الشيخ موسى ، وما كان عليه من بعد اثره في سبيل الله ، وما فتح الله على يديه وهذا يفعل به ! فالتفت الىّ سليمان ، فقال : يا أبا حفص أما اظن الا قد خرجت من يميني ! فقال عمر : فاغتنمت ذلك منه ، فقلت : يا امير المؤمنين ! شيخ كبير بادن ، وبه نسمة قد أهلكته ، وقد اتيت على ما فيه من السلامة لك من يمينك ، وهو موسى البعيد الأثر في سبيل الله ، العظيم الغناء عن المسلمين ، قال عمر : منعنى من الكلام فيه ، ما كنت أعلم من يمينه وحقده عليه ، فخشيت ان ابتدأته أن يلح عليه ، وهو لحوح . قال عمر : فلما قال لى ما قال آخراً ، حمدت الله على ذلك ، وعلمت انّ الله قد أحسن اليه ، وان سليمان قد ندم فيه . فقال سليمان : من يضمه ؟ فقال يزيد بن المهلب : انا اضمه =

قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك أولاده ولاة على إفريقية والأندلس ، ولأنّ موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المُهَلَّب الذي كان مقرّباً جداً من سليمان بن عبدالملك وصاحب الأمر في دولته (١٤٣) ، ولأنّ عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه كان من أقرب المقربين إلى سليمان ، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبدالعزيز عن مثل تلك التّصرفات ، دون أن يقول كلمة الحق ، لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ، ولأنّ سيرة سليمان الذي وصفه المؤرّخون ، بأنّه : مفتاح الخير ، أطلق الأسارى ، وخلّى أهل السّجون ،

= يا أمير المؤمنين . قال : وكانت الحال بين يزيد وسليمان لطيفة خاصة. قال سليمان : فضمه اليك يا يزيد ، ولا تضيق عليه . قال : فانصرف به يزيد ، وقد قدم اليه دابة ابنه مخلّد ، فركبها موسى ، فأقام اياما . قال : ثم انه تقارب ما بين موسى وسليمان في الصلح ، حتى افتدى منه بثلاثة آلاف دينار » .... انتهى .

ومن الواضح ، أنّ المبالغة والتناقض يسودان هذه الرواية ، فسليمان لا يتورع عن تعذيب شيخ فانٍ عذاباً يقربه من حافة القبر ، وسليمان تارة قاس غاية القسوة ، وهو رحيم غاية الرحمة تارة اخرى في نفس الوقت ، بحيث يوصى بهذا الشيخ خيراً ، فلا يرضى ان يضيق عليه احد ! كما أن هذه القصة تناقض ما جاء عن سليمان من مزايا ، فهو : « مفتاح الخير ، أطلق الأسارى ، وخلى السجون ، واحسن الى الناس ، واستخلف عمر بن عبدالعزيز ... » .. الخ ، كما جاء في الطبري (٣٠٤/٥) ، فكيف يقوم بتعذيب شيخ له ماضٍ مجيد ، كما وصفه عمر بن عبدالعزيز بالذات ، وكما يعرف عنه الناس جميعاً ؟!

كما أنّ هناك تناقضاً فاضحاً بين هذه القصة ، وبين ما جاء في القصص التي نوّهنا عنها في أعلاه ، ويبدو أنّ هذه القصة وأمثالها من جملة القصص الموضوعة للتشنيع بسليمان وغيره من رجال العرب المسلمين الخلفاء ومن عمل معهم في تلك الأيام الذهبية من تاريخ العرب والأسلام ، وبخاصة في مجال الفتوح شرقاً وغربا ، وأمثال هذه القصص ظاهرة التهافت والتناقض ، لا تستقيم مع خلق العرب وتعاليم الأسلام ، التى كانت سائدة في المجتمع العربي الاسلامي حينذاك .

(١٤٣) انظر قادة فتح المغرب العربي (٢٧٨/١ ـ ٢٧٩) .

وأحسن إلى الناس ، واستخلف عمر بن عبدالعزيز (١٤٤) ، لا تستقيم مع اتّهامه بالتنكيل بموسى ، وهو شيخ كبير ، له ماضٍ ناصع مجيد في خدمة العرب والمسلمين . وأرى أنّ من المستبعد أن يعاقب سليمان تابعيّاً جليلاً هو موسى بن نصير ، ويعاقب مَن معه من أمثال طارق بن زياد ، وهما قد أسّسا ملكاً وقضيا حياتهما مجاهدين في سبيل الله ، لمجرّد قالة ظالمة أو وشاية كاذبة . وحتى مقتل عبدالعزيز بن موسى بن نصير ، لم يكن لسليمان يد فيه ، لأنّ سليمان غضب لمقتل عبدالعزيز ، وأرسل إلى الأندلس عاملاً من قبله للتحقيق في مقتل عبدالعزيز ، والقبض على قتلته ، وإرسالهم إليه(١٤٥) .

لقد كان موقف سليمان من موسى ومَن معه سليماً ، وحقائق التاريخ تعلو دائماً على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد .

ولكن . لماذا عزل الوليد بن عبدالملك موسى عن إفريقية والأندلس ، وأقرّ سليمان هذا العزل ؟ .

لماذا استدعى الوليد موسىوطارقاً من ساحات القتال على عجل ، ولم يمهلهما حتى يحقّقا كلّ أهدافهما في الفتح ؟ (١٤٦) .

ب . أسباب استدعاء موسى وطارق :

كان للخلفاء أساليب خاصة ، لمعرفة تفاصيل أعمال ولاتهم وقادتهم

---

(١٤٤) الطبرى (٥/٣٠٤) .

(١٤٥) انظر تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (١٠٦ ــ ١٠٧) ، وفي اخبار مجموعة (٢٢) : « ولما بلغ سليمان مقتل عبدالعزيز بن موسى ، شقّ ذلك عليه ، فولّى افريقية عبيدالله بن يزيد ... وامره سليمان أن يحقّق فيما فعله حبيب بن ابى عبيدة وزياد بن النابغة من قتل عبدالعزيز ، بأن يتشدد في ذلك ، وان يقفلهما اليه ومن شاركهما في قتله من وجوه الناس .... » .

(١٤٦) قادة فتح المغرب العربي (١/٢٨٠) .

وتصرّفاتهم ، للاطمئنان إلى أنّ أولئك القادة والولاة ، لا يخرجون عن الخطّة التي رسمها لهم الخلفاء . وليحول الخلفاء – جهد الإمكان – دون خروج الولاة والقادة عليهم ، عند سنوح الفرصة المناسبة لهم .

من تلك الأساليب الخاصة التي يسيطر بها الخلفاء على ولاتهم وقادتهم ، وبخاصة في الأصقاع النائية عن عاصمة الخلافة ، هي إرسال مَن يعتمدون عليهم من الرجال ، لينقلوا إليهم بدقة وسرعة وأمانة ، كلّ ما يرونه ضرورياً ، لجعل الخلفاء مطمئنين من سير الأمور ، في مختلف البلاد والأمصار ، كما يريدون .

وكان مُغيث الرُّومي أحد مَن كان يعتمد عليه الوليد بن عبدالملك ، لأنّ عبدالملك بن مروان كان قد أدّبه مع ولده الوليد ، وقد نشأ بدمشق ، ودخل الأندلس مع طارق فاتحها . وقد وقع بينه وبين طارق ، ثمّ وقع بينه وبين موسى ، فرحل معهما إلى دمشق ، ثمّ عاد ظافراً عليهما إلى الأندلس . وكان مغيث مشهوراً بحسن الرأي والكَيْد (١٤٧) . وكان يطمع بولاية الأندلس ، فلما عزم سليمان على تولية طارق بن زياد الأندلس استشار مغيثاً . فصرفه عن عزمه ، وقد بالغ في إذاية موسى عند سليمان(١٤٨).

ويروى لمغيث شعر خاطب به موسى وطارقاً . منه قوله :

أعَنْتُكُمُ ولكـــن ماوفيتُم
فسوف أعيث في غربٍ وشـــرق

وعارض يوماً مغيث في محفل من الناس موسى بن نُصير ، فقال له موسى : « كُفَّ لسانك » . فقال مغيث : « لساني كالمِفْصَل (١٤٩) ،

---

(١٤٧) نفح الطيب (١١/٤) .
(١٤٨) نفح الطيب (١٢/٤) .
(١٤٩) المفصـــل : بكسر الميم ، اللســـان ، والسَّيْف ، ويروى بفتح الميم والصاد : المفصَل ، انظر لسان العرب (٣٨/٤) .

ما أكفّه إلاّ حيثُ يقتل » (١٥٠) .

والظاهر أنّ مغيثاً لم يدّخر وسعاً في تشويه سمعة موسى عندالوليد ، وعند سليمان من بعده . طموحاً في تولّي الأندلس من بعد موسى ؛ ولكن كان مغيث صادقاً في اتّهامه ، إذ حقق سليمان جميع ما رُمِيَ به موسى عنده ، فأغرمه غرماً عظيماً (١٥١) ، ومن هذا يتّضح أنّ مغيثاً رمى موسى بعدم الأمانة في التصرف بالغنائم .

فهل كان اتّهام موسى بنزاهته حقّاً ؟ الواقع أنّ مغيثاً ليس وحده اتّهم موسى بالغلول أو بعدم تطبيق تعاليم الاسلام في الغنائم نصّاً وروحاً ، فقد ذكروا أنّ سليمان بينما كان يقلّب هدايا موسى التي جاء بها من الأندلس وإفريقية إلى دمشق ، إذ انبعث رجل من أصحاب موسى يقال له عيسى بن عبدالله الطويل من أهل المدينة المنورة . وكان على الغنائم ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! إنّ الله أغناك بالحلال عن الحرام ، وإني صاحب هذه المقاسم ، وإنّ موسى لم يخرج خُمساً من جميع ما أتاك » ، فغضب سليمان وقام عن سريره . فدخل منزله . ثمّ خرج فقال للناس : « نعم . قد أغناني الله بالحلال عن الحرام » . وأمر بادخال ذلك بيت المال (١٥٢) .

ولكنّ ذلك لا يكفي لإثبات التّهمة الموجّهة إلى نزاهة موسى ، وهو الذي عُرف بالتديّن ، وكان ورعاً تقيّاً لله (١٥٣) ، ولو ثبت ذلك عليه لما توسّط له عمر بن عبدالعزيز عند سليمان ، فعفا عن موسى (١٥٤) ، وعمر بن عبدالعزيز معروف بالتزامه بتعاليم الشرع الحنيف .

---

(١٥٠) نفح الطيب (١٣/٤) .
(١٥١) نفح الطيب (٢٦٢/١) .
(١٥٢) فتوح مصر والمغرب (٢٨٤) .
(١٥٣) وفيات الأعيان (٤٠٢/٤) ونفح الطيب (٢٢٤/١) . وانظر رياض النفوس (٧٨/١) ووفيات الاعيان (٤٠٣/٤) .
(١٥٤) الأمامة والسياسة (٩٢/٢/٢ — ٩٣) .

ولا شكّ في نزاهة موسى ، فقد أغناه الله هو الآخر بالحلال عن الحرام ، فلماذا يتردى إلى مهاوي الخيانة في أمانته ،وقد فُتحت عليه أبواب الخير ؟ لقـــد كان كريماً سخياً ، فأعطى من الغنائم مَن أعطى ولم يستأثر بما أخذ من الغنائم لنفسه ولمصلحته الشخصية حسب ، بل شارك بها الآخرين .

فما هي اسباب استدعاء موسى من الأندلس إلى دمشق وعزله ؟

يبدو أنّ الوليد ، ومن بعده سليمان ، اعتقدا أنّ موسى غرّر بالمسلمين ، وأنّه عرّضهم للمهالك ، بتغلغله عميقاً في الأندلس ، كما أنّهما خشيا من طموح موسى في التغلغل إلى بلاد أبعد من الأندلس . فيقود المسلمين إلى روميّة (١٥٥) ، وأنّ موسى : « أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية، ويتجاوز إلى الشّام دروبه ودروب الأندلس ، ويخوض إليه ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهداً فيهم ، مستلحماً لهم ، إلى أن يلحق بدار الخلافة » ، فنمى هذا الخبر إلى الوليد ، فاشتدّ قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ، ورأى أنّ ما همّ به موسى غَرَرٌ بالمسلمين ، فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف ، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع موسى ،وكتب له بذلك عهده ، ففتّ ذلك في عزم موسى ، وقفل عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها ، وأنزل ابنه عبد العزيز لسدّها وجهاد عدوّها (١٥٦) . والظاهر أنّ الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على أمن المسلمين في الأندلس حتى بعد الوليد وسليمان ، فقد فكرّ عمر بن عبد العزيز في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها ،لأنه خشـــى تغلّب العدوّ عليهم (١٥٧) ، فإذا كان هذا ما يعتقده عمر بن عبد العزيز الذي تولّى الخلافة سنة تسع وتسعين الهجريّة (١٥٨) ،

(١٥٥) الأمامة والسياسة (٢/٨١) .
(١٥٦) نفح الطيب (١/٢١٨) .
(١٥٧) تاريخ افتتاح الأندلس (٣٩) واخبار مجموعة (٢٣) .
(١٥٨) الطبرى (٥/٣٠٤) .

فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين الهجرية (١٥٩) ، والفتح كان في أوّله ، والأندلس جد بعيد عن دار الخلافة ؟ .

وإذا كان عمر بن عبد العزيز ، قد خشي على المسلمين في الأندلس ، بعد استقرار الفتح فيها، فكيف لا يخشى الوليد ومن بعده سليمان ، على المسلمين، من طموح موسى في التغلغل بهم بعيداً بعيداً إلى روميّة وإلى القُسطنطينيّة ؟ .

لقد كان طموح موسى في التوسّع بالفتح ، سبباً واضحاً لاستدعائه إلى دمشق . وهذا السبب – فيما أرى – من الأسباب الجوهريّة لاستدعائه .

وهناك سبب آخر ، لايقلّ خطورة عن السبب السابق ، هو اتّهام موسى بالخلع . فقد ذكروا أنّ الوليد بن عبد الملك لما بلغه سير موسى إلى الأندلس ، ووُصفت له، ظنّ أنّ موسى يريد أن يخلع ويقيم فيها ويمتنع بها ، وقيل له ذلك . وأبطأت كتب موسى عليه . لاشتغاله بما هنالك من العدو ، وتوطئته للفتح (١٦٠) . مما زاد في شكوك الوليد بنيات موسى بمحاولته الاستقلال أو التحرر من سلطان الخلافة . ولعلّ الذين أدخلوا هذه الشكوك في روع الوليد . لم ينسوا أن يذكروا له سيطرته التامة هو وأولاده ومواليه على إفريقيّة والأندلس . مما ضاعف تلك الشكوك . وجعلها بعيدة عن الحدس ، قريبة من التصديق .

ولعلّ اتّهام موسى بالخلع . هو الذي يفسّر لنا لماذا لم تختلف نظرة سليمان عن سلفه الوليد إلى موسى . مع ما بين الخلف والسلف من تناقض كثير . كما هو معروف . ذلك لأنّ أصحاب السلطان . إذا اختلفوا في كلّ شيء . فانّهم يتّفقون على شيء واحد . هو عدم التّغاضي عن كلّ مَنْ يريد التحرّر من ربقتهم والاستقلال عنهم . سواء كان إتّهامه حقاً بذلك أم كان باطلا . كما أنهم كانوا ولايزالون يدخلون في حسابهم أسوأ الاحتمالات .

(١٥٩) نفح الطيب (٣١٨/١) وفتح مصر والمغرب (٢٨٤) .
(١٦٠) الأمامة والسياسة (٧٥/١) .

لمقاومة الذين يخرجون عليهم أو الذين يتّهمونهم بالخروج عليهم زوراً وبهتانا . ويكفي أن يأخذوا المتّهم أخذاً في حالات الظنّ وفي حالات اليقين .

سأل سليمان مغيثاً عن طارق بن زياد ، وقد أراد أن يوليه الأندلس خلفاً لموسى ، فقال : « كيف أمر طارق بالأندلس ؟ » ، فقال مغيث : « لو أمر أهلها بالصّلاة إلى أيّ قبلة شاءها ، لتبعوه ولم يروا أنّهم كفروا » ، فعملت هذه المكيدة في نفس سليمان ، وبدا له في ولايته (١٦١) ، وهذا يدلّ بوضوح ، على السياسة التي كان يتبعها سليمان في تولية الولاة ، إذ يستبعد عن الولاية كلّ مَن يخشى خطره من بعيد أو قريب .

وكان يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَة . من أقرب المقرّبين إلى سليمان ابن عبد الملك ، وكان لموسى يد على المهلّب بن أبي صُفْرَة(١٦١) ، وقد سأل يزيد يوماً موسى : « أريد أن أسألك ، فاصْغِ إليّ » ، فقال موسى : « سَلْ عمّا بَدَا لك » ، فقال : « لم أزل أسمع عنك ، أنّك من أعقل الناس ، وأعرفهم بمكايد الحرب ومُداراة الدنيا ، فقل لي : كيف حصلت في يدي هذا الرجل (يعني سليمان بن عبد الملك) بعدما ملكت الأندلس ، وألقيت بينك وبين هؤلاء البحر الزّخّار(١٦٣) ، وتيقّنتَ بُعدالمرام واستصعابه ، واستخلصت بلاداً أنت اخترعتها ، واستملكت رجالاً لايعرفون غير خيرك وشرّك ، وحصل في يدك من الذّخائر والأموال والمعاقل والرجال ما لو أظهرت به الامتناع ما ألقيت عنقك في يد مَن لايرحمك . ثمّ إنك علمت أنّ سليمان وليّ عهد ، وأنّه المُوَلّى بعد أخيه ، وقد أشرف على الهلاك لامحالة (١٦٤) ،

---

(١٦١) نفح الطيب (١٢/١) .

(١٦٢) انظر الامامة والسياسة (٩٤/٢ ـ ٩٥) ، وانظر سيرة المهلب في كتابنا : قادة فتح السند والأفغان .

(١٦٣) البحر الزخار : الطامى الممتلىء الجياش بالأمواج .

(١٦٤) أشرف على الهلاك : أراد انه قارب الموت لسوء حاله .

وبعد ذلك خالفته وألقيت بيدك إلى التّهلكة ، وأحقدتَ مالكك ومملوكك (يعني سليمان وطارقاً) ، وما رضا هذا الرجل إلاّ بعيد، ولكن لا آلو جهداً » (١٦٥) ، فقال موسى : « يا ابن الكرام ! ليس هذا وقت تعديد ، أما سمعت : إذا جاء الحَيْنُ (١٦٦) ، غطىّ على العين ؟! » ؟ فقال يزيد : « ما قصدتُ بما قلت لك تعديداً وتبكيتاً ، وإنما قصدت تلقيح العقل . وتنبيه الرأي ، وأن أرى ما عندك » فقال موسى : « أما رأيتَ الهُدْهُد يرى الماء تحت الأرض عن بُعْدٍ . ويقع في الفخّ وهو بمرأى عينه ؟ ! » (١٦٧) .

وسهر يزيد بن المهلّب عند موسى ليلة ، فقال له : « يا أبا عبد الرحمن ! في كم تعدّ مواليك وأهل بيتك ؟ » . فقال موسى : « في كثير » ، فقال يزيد : « يكونون ألفاً ؟ » . فقال موسى : « وألفاً وألفاً إلى منقطع النّفس ! » ، فقال يزيد : « وأنت على ما وصفتَ . وألقيت بيدك إلى التهلكة ؟ ! أفلا أقمت في قرار عزّك وموضع سلطانك . وامتنعتَ بما قدمتَ به ؛ فإن أُعطيت الرضى وإلاّ كنت على عزّك وسلطانك » . فقال له : « والله لو أردتُ ذلك . لما نالوا من أطرافي طرفاً . ولكنني آثرت الله ورسوله ، ولم نَرَ الخروج على الطّاعة والجماعة » (١٦٨) .

تلك هي أسباب استدعاء موسى وطارق من الأندلس إلى دمشق وعزلهما . وهنا لا يمنع من وجود أسباب تافهة أخرى . أخذها على موسى وطارق كلّ من الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك . فما علاقة طارق بمجمل تلك الأسباب ؟ .

---

(١٦٥) لاآلو جهداً : لا اقصر فيما لدى من الجهد والوسع ان ابذله في ارضائه عنك .

(١٦٦) الحين : الهلاك .

(١٦٧) نفح الطيب (١/٢٦٥) .

(١٦٨) البيان المغرب (٢/٢٥ ـ ٢٦) . وانظر ايضاً البيان المغرب (١/٤٢) .

لقد اتهم موسى بنزاهته ، فقيل : إنّه لم يخرج خُمساً من جميع مغانمه ، ولم يُتّهم طارق بمثل هذه التّهمة من أحد ، وليس هناك أيّ نص في المصادر يتهّمه . وقد كان موسى مسئوله المباشر ، وكان مولى موسى ، وكان في جيش طارق قبل عبور موسى إلى الأندلس ، مَن يرفع عنه أمره إلى موسى فلا يخفى من أمر طارق على موسى شيء ، ولا نعلم أنّ موسى حاسب طارقاً على نزاهته أو شكّ في نزاهته .

وحين قدم طارق إلى دمشق مع موسى ، لم يُحاسب من الخليفة ولا من غير الخليفة على نزاهته ، ولم يتطرق الشك حوله من ناحية نزاهته إلى أحد من المسئولين أو إلى أحدٍ من غير المسئولين .

أما السّبب الثاني ، وهو اتّهام موسى بالتّغرير بالمسلمين ، من وجهة نظر الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان بن عبد الملك، فَإنّ طارقاً يُشارك في هذه التهمة أيضاً ، إن لم تكن تهمته في التغرير أجسم من تهمة موسى بها وأضخم ، فقد تغلغل في الأندلس بالعمق ، وعرض جناحيه : الأيمن والأيسر ، لخطر التعرّض القوطيّ عليهما ، كما عرّض خطوط مواصلاته للخطر أيضاً ، مما حدا بموسى إلى العبور للأندلس ، لمعالجة الموقف الخطير الذي أصبحت قوّات المسلمين تتعرّض له في حينه ، فعالج موسى الموقف ، ورصّن وضع قوّات المسلمين ، وأبعد عنها الخطر الوشيك الداهم .

ولا يمكن تبرئة طارق من تهمة التّغرير بالمسلمين ، وسترد مناقشة ذلك في الحديث عن سماته القياديّة .

أما اتّهام موسى بالخلع ، وهو السبب الثالث ، فاتّهام باطل من أساسه ، وقد احترق به طارق كما احترق به موسى ،باعتبار طارق أحد موالي موسى، ولم تكن تلك التهمة في الواقع إلاّ في خَلد الخليفة ومَن يشايعه في ظنونه وأوهامه .

والحق أنّ موسى أصبحت له شعبيّة طاغية في إفريقيّة والمغرب والأندلس بخاصة ، وفي سائر بلاد المسلمين بعامة ، لفتوحاته العظيمة ، وانتصاراته الباهرة ، ولفضله وإحسانه على الناس مادياً ومعنوياً .

كما أصبحت لطارق شعبيّة طاغية في الأندلس وبين البربر بخاصة ، وفي إفريقيّة وسائر بلاد المسلمين بعامة . لفتوحاته العظيمة ، وانتصاراته الباهرة ، ولشجاعته الفذّة ، وإقدامه النادر .

والشعبية الطاغية ، إذا تحلىّ بها قائد من القادة ، فإنّ ذلك لايُريح المسئول الأعلى ، ويجعله يخشى ذلك القائد ، ويظنّ به الظنون، ومن تلك الظنون اتّهامه بالخلع ، حتى ولو كان بعيداً عن التفكير بذلك، كما كان الحال بالنسبة لموسى وطارق .

وشعبيّة موسى الطّاغية ، وشعبية طارق الطّاغية ، هي التي أدّت إلى سحبهما من الأندلس إلى دمشق . وحرمانهما من قيادتهما المنتصرة الموفّقة ، وحرمان الفتح من جهودهما المثمرة ، حيث خافت الخلافة منهما على الخلافة . وخشيت الخلافة من إقدامهما على الخلع . وهما في بلاد قصيّة عن عاصمة الخلافة ، بعيدة عن مراكز قوتها ، بين رجالهما الذين يدينون لهما وحدهما بالولاء ، لأنّهم لا يعرفون غيرهما ، وهم يعيشون برخاء ونعمة بفضلهما .

ولكن الخلع لم يخطر على بال موسى ، كما لم يخطر على بال طارق ، فاحترق موسى بنيران تهمة هو بريء منها،واحترق طارق بنيران موسى ، بدون ذنب يستحقّ عليه العقاب .

وأيّاً كانت أسباب حنق الوليد وسليمان على موسى ومولاه طارق ، فإنّ فاتحى الأندلس لم يلقيا الجزاء الحق ، بل غمط حقّهما وفضلهما ، وأبدت الخلافة بهذا الجحود والنكران ، أنّها لم تقدِّر البطولة في هذا

الموطن قدرها (١٦٩) . ولعلّ عذر الوليد ومن بعده سليمان ، أنّ موسى كان يمثل خطراً شديداً على الخلافة بعد امتداد سلطانه إلى أعماق إفريقية والمغرب وأوربا ، وسيطرته على تلك الاصقاع النائية سيطرة شخصيّة وبأولاده ومواليه وأتباعه ، وسيطرته في الأندلس كانت بطارق ، مما فسح المجال لتقوّلات خصوم موسى وحاسديه عليه وعلى أعوانه البارزين — وعلى رأسهم طارق .

ومن الواضح ، أنّ موسى — في حقيقة أمره — كان بعيداً كلّ البعد عن الاختلاس ، ولكنه كان كريماً جداً ، ولم يكن تغلغله في تلك الأصقاع النائية التي جعل الخلفاء يظنّون أنّه غرّ بالمسلمين وعرّضهم للأخطار ، إلاّ عن رغبته الأكيدة في الفتح ونشر رايات الإسلام ، مع تمكنّه وثقته الكاملة بقابليته وقابليّة رجاله على تحمّل أعباء هذا الفتح العظيم وتبعاته ، فكان المسلمون في أمن ودعة لا في خطر وشِدّة — كما حسب الخلفاء وتصوّروا . كما أنّ موسى لم يفكرّ أبداً بالخلع والاستقلال عن الخلافة ، فقد كان إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسّكه والتزامه بها ، وشدّة ضبطه وابتعاده عن شق عصا الطّاعة ، والانزلاق في مهاوى الفتن والفِرقة ، كلّ ذلك جعله بعيداً غاية البعد عن اتّهام خصومه وحاسديه له بالخلع أو الاستقلال الذاتيّ ، خاصة وأنّه كان في ذلك الوقت قد بلغ حوالي الثمانين من عمره ، وهي سنّ لا تشجّع مَن بلغها على المغامرة ، وتجعل من صاحبها إنساناً ذا تجربة وخبرة ، بعيد النظر ، مقدّراً لعواقب الأمور .

لقد ذهب موسى ومعه طارق ، ضحيّة الدّس والحسد ، فخسر العرب والمسلمون بتنحيتهما بطلين من ألمع أبطالهم ، وفاتحين من أعظم فاتحيهم ، ورجلين من أنبغ رجالاتهم ، وقائدين من أبرز قادتهم ، وكانت تنحيتهما

(١٦٩) دولة الاسلام في الأندلس (٥٨) وانظر فجر الأندلس (١٠٩) .

نكسة قاصمة للفتح الإسلامي في الأندلس وأوربا (١٧٠) .

وقد بقي في الأندلس ، جيوب من القوط ، لم يتمّ القضاء عليها نهائيا ، ولوبقي موسى وطارق لقضيا عليها قضاءً مبرُما . وهذه الجيوب من بقايا القوط ، هي التي نمت وانتعشت واستردّت الأندلس من المسلمين بعد حين ، كما هو معروف .

ولو بقي موسى وطارق في الأندلس ، لأصبح فتح الأندلس فتحاً مستداما ، كفتوح البلاد والأمصار الأخرى .

ولكن ، هل خسر العرب والمسلمون موسى وطارقاً وحدهما نتيجة للدس والحسد ؟ ؟ ! !

لقد خسروا من أمثالهم الكثير .

٢ ـ الرّجل

كان طارق مع موسى بن نُصَير في رحلته الطويلة من الأندلس إلى دمشق ، وقد احترق طارق بنار موسى كما ذكرنا ، فسحب من قيادته في الأندلس، وأصبح مع موسى رجلاً بلا غد . له رصيد في الفتح وتاريخ، ولكن السُّلطة تخلّت عنه إلى الأبد .

وقد تُوفي موسى سنة سبع وتسعين الهجرية (١٧١) (٧١٨م) وهو في الحج برفقة الخليفة سليمان بن عبدالملك (١٧٢) ،وكانت وفاة موسى بوادي القُرى (١٧٣) . ولم يعد من حجّه إلى دمشق .

---

(١٧٠) قادة فتح المغرب العربي (٢٨٦/١) .
(٧١) تاريخ العلماء ورواة العلم بالأندلس (١٤٤/٢) وجذوة المقتبس (٣١٧) وبغية الملتمس (٤٤٢) والحلة السيراء (٣٣٤/٢) والعبر (١١٥/١ ـ ١١٦) وشذرات الذهب (١١٣/١) ونفح الطيب (٢٥٤/١) .
(١٧٢) الأمامة والسياسة (١٠١/٢) .
(١٧٣) وادى القرى : واد بين المدينة والشام ، من أعمال المدينة ، كثير القرى ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٥/٨) .

ولا ندري هل كان طارق مع موسى في رحلة حجّه، أم بقي في دمشق، كما لاندري أبقي في دمشق بعد رحيل موسى عن هذه الدنيا، أم رحل طارق إلى إفريقية أو الاندلس .

وعلى كلّ، فكان لطارق عَقِب لهم ذكر في الأندلس، وكانوا ينكرون ولاء طارق لموسى إنكاراً شديداً(١٧٤)، ويذكر قسم منهم أنّه من قبيلة صَدِف العربيّة من حَضرَمَوْت ، ويذكر قسم آخر أنّه من موالي قبيلة صَدِف وليس بمولى موسى بن نصير . كما يذكر قسم منهم، أنّ طارقاً من بني ليث من قُضَاعة (١٧٥)، كما ذكرنا ذلك في الحديث على: نسبه وأيامه الأولى، فلا ندري هل عاد طارق إلى الأندلس بعد موت موسى ، أم رحل إليها عقبه ، أو رحل إليها قسم منهم ، ومتى ؟

ومن المرجّح أنّ عقبه هم الذين رحلوا إلى الأندلس، لأنّ طارقاً لو رحل إليها لذكر رحيله المؤرخون ، ولما سكتوا عنه .

ومن الواضح، أنّ طارقاً نفزاويّ من البربر ومن إفريقية، كما ذكرنا ذلك من قبل ، ولم يدّع أنه عربي ، ولكنّ مَن جاء بعده من ولده ادّعى ذلك .

وقد ولد مسلماً، إذ كان أبوه وجدّه مسلمين، فهو من أسرة اشتهرت بسبقها إلى اعتناق الإسلام ، إذ أسلم والد طارق أيام عُقبة بن نافع ، والتحق طارق بعد وفاة والده بخدمة المسلمين ، وكان إذ ذاك صغير السن ، ولكنه كان يتمتع بقدر كبير من الحماسة والغيرة على الدين الإسلامي، جعله من أشد المقربين إلى موسى ابن نُصير(١٧٦). ولانعلم بالضبط متى تم اتصال طارق بموسى ولا بمكانه،

(١٧٤) نفح الطيب (٢٥٤/١) برواية الرازي .
(١٧٥) انظر : نفح الطيب (٢٥٤/١) برواية الرازي و (٢٣٩/١) وأخبار مجموعة (٦) .
(١٧٦) الشيخ محمد أبو زيد طنطاوي ـ فتح العرب للاندلس ـ مجلة الجامعة الأسلامية بالمدينة المنورة (٤٣ ـ ٤٤) ـ العدد الثاني ـ السنة العاشرة رمضان ١٣٩٧هـ ـ مؤسسة مكة للطباعة والاعلام .

ولكننا نعلم أنه ولاّه مقدمته في فتح مدينة طنْجَة ، فلما فتحت هذه المدينة ولاّه موسى على إدارة وقيادة هذه المدينة ، وكان ذلك في حدود سنة تسعين الهجرية (٧٠٨ م) وأبقى معه عـــدداً قليلاً من العـــرب لنشر الإسلام بين البربر (١٧٧) .

وقد ظهر اسم طارق لأول مرة ، بعد خروج موسى من القيروان لفتح مدينة طنجة ، فولاّه موسى مقدّمته ، مما يدلّ على تبادل الثقة بين موسى وطارق ، ولا تكون هذه الثقة إلاّ نتيجة لتجربة عملية طويلة ، نجح فيها طارق بالنسبة لموسى ، فحصل على ثقة موسى الكاملة به ، فولاّه قيادة مقدّمته ، فهل كانت هذه التجربة التي نجح فيها طارق في إفريقية والغرب حسب ، وقد مكث موسى فيها سنوات قليلة ، أم أنّ هذه التجربة سبقت قدوم موسى إفريقية والمغرب ، واستمرّت بعد ذلك في إفريقية والمغرب ؟؟

والجواب على ذلك صعب ، لأنّ المصادر المعتمدة لا تيسّر الجواب الواضـــح . إذ لا نصـــوص تدل عليه أو تشـــير إليه ، فمثل هذه الثقة لا تتكون بسهولة وسرعة ، فمن المحتمل أنّ طارقاً اتصل بموسى في مصر قبل توليه إفريقية والمغرب ، وليس ذلك ببعيد الاحتمال ، ولكن لا دليل عليه من النصوص المتيسرة في المصادر المعتمدة .

على كلّ حال ، نجح طارق إدارياً في ولايته على طنجة ، فقد أصبح موثوقاً به من البربر بخاصة ومن أهل المدينة بعامة ، وأصبح موضع حبهم وولائهم . وقد تخطت شعبية طارق حدود ولايته إلى ما جاورها من الولايات ، فكان سبباً من أسباب استمالة يليان إلى المسلمين ، مهما تكن الأسباب الأخرى ، فاتصـــل يليان بطارق ، وكان طارق صـــلة ارتباط يليان بموسى

(١٧٧) ابن حبيب (٢٢٢) وفتـــح مصر والمغرب (٢٠٤ ــ ٢٠٥) وابـــن الاثير (٤/٥٤٠) ووفيات الأعيان (٥/٣٢٠) .

ابن نصير ، وسبباً من أسباب تسليم سَبْتَة للمسلمين سلماً بدون قتال ، ومعاونة يليان وتعاونه مع المسلمين في فتح الأندلس ، كما ذكرنا ذلك .

ولا مجال للشك ، في أنّ إتصال يليان بطارق وموسى ، وتسليم سبتة للمسلمين سلماً ، بعد أن استعصى عليهم فتحها بالقتال ، وتعاون يليان مع المسلمين ومعاونته لهم في فتح الأندلس ، كان حسنة من حسنات طارق ، تُعرف له وتُذكر بالشكر والعرفان .

كما كان التفاف البربر حول قيادته في طنجة أولاً ، وفي الأندلس ثانيا ، دليلاً على تمتعه بالخلق الكريم .

ولا أحد يدري أين ولد طارق ، ولا أيامه الأولى قبل اتصاله بموسى ابن نصير ، ولا أيامه بعد رحيل موسى عن هذه الدنيا إلى جوار ربه . ولا يعرف أحد عن عدد اولاده وأسمائهم ،و متى جـرى رحيل بعضهم أو رحيلهم إلى الأندلس ، ولا يدري أحد هل رحل أولاد طارق إلى الأندلس ، أم رحل أعقابهم ، كلّ ذلك غير معروف . كما لا يدري أحد متى مات وأين مات ، وكم كان عمره يوم تُوفى .

وقد ذكرنا نص خطبة طارق في رجاله ، قبل أن يخوضوا المعركة الحاسمة ، معركة وادي لَكُّهْ ، وتروى لطارق كذلك أبيات من الشعر ، لا بأس من ذكرها هنا ، وهي :

رَكبنا سَفِينْاً بالمجـاز مُقَيَّراً
عسى أن يكون اللهُ مِنَّا قد اشترى
نُفُوْساً وأمـوالاً وأهلاً بِجَنَّـة
إذا ما اشْتَهَيْنَـا الشَّيءَ منها تَيَسَّرَا

ولسنا نُبالي كيف سَالَتْ نُفُوْسُنا

إذا نحن أدركنا الذي كان أجْدَرا

وهذه الأبيات مما يُكتب لمراعاة قائلها ومكانته ، لا لعلوّ طبقتها(١٧٨) . وهي ليست من الشعر البليغ ، ولكنّها من النّظم الموزون المقفّي ، وهي إن دلّت على شيءٍ ، فإنما تدلّ على إيمان طارق العميق بالإسلام ، ومبلغ حبّه للجهاد في سبيل الله واستعداده للتضحية في سبيل إعلاء كلمة الله بالمال والنفس والأهل ، ومن الواضح أنّ هذه الحماسة الدينيّة لطارق ، كانت وراء اندفاعه الشديد في طريق الفتح .

وهذه الأبيات . في معانيها مقتبسة من قوله تعالى : (إنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المؤْمنينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بأنَّ لَهُمْ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلونَ في سَبِيْلِ الله فَيَقْتُلُوْنَ ويُقْتَلُوْنَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً في التَّوْراةِ والانجيلِ والقُرْآنِ ، ومَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ من اللهِ ، فاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمْ الذي بايَعْتُمْ به . وذلك هوَ الفَوْزُ العَظِيْم) (١٧٩) .

« وكان طارق حسن الكلام ، ينظم ما يجوز كتبه »(١٨٠) ، إنّه كان بليغ العبارة في نثره . قوي الأسلوب . متين التراكيب ، كما يشهد على ذلك خطابه التاريخي ، وإنّه كان ينظم الشعر ، ومهما قيل في ضعف شعره وقلّته . فإنّ نثره وشعره يدلان على معايشة العرب معايشة طويلة ، فلا يُستبعد أن يكون قد رحل إلى مصر أو بلاد الشّام أو كان مع موسى في البصرة يوم كان هناك . ولكن لا دليل يثبت تلك المعايشة إلاّ نثره ونظمه ، وقد

---

(١٧٨) انشد في المسهب وابن اليسع في المعرب لطارق من قصيدة قالها في الفتح ، انظر نفح الطيب (١/٢٦٥) .

(١٧٩) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ : ١١١) .

(١٨٠) نفح الطيب (١/٢٣١) برواية ابن بشكوال .

تكون تلك المعايشة تمتْ في إفريقية مثلا (تُونس) في إحد حواضرها كالقيروان ، التي كانت يومذاك تعج بالعرب الفاتحين وأبنائهم وذ ويهم ومواليهم.

ومن ثقة موسى به قائداً وإنسانا ، وثقة البربر به ومحبتهم له واعتمادهم عليه : « لو أمر أهلها بالصّلاة إلى أي قبلة شاءها لتبعوه ، ولم يروا أنّهم كفروا » (١٨١) ، وعدم اتهامه بنزاهته ، يمكن أن نستنتج ، أنّه كان مسلماً حقّاً ، قويّ الإيمان ، راسخ العقيدة ، مجاهدا صادقاً ، قويّاً أميناً ، نزيهاً لم يتلوّث بمال حرام ، ولم يخلّف درهماً ولا ديناراً ، ولا داراً ولا عقارا ، دمث الأخلاق ، حليماً كريماً سخيّاً ، محبّاً للناس محبوباً منهم ، شهماً غيورا .

ولا أعرف قائداً فاتحاً ، له في تاريخ الفتوح ما لطارق في تاريخ الفتوح ، بخل عليه التاريخ إنساناً كما بخل على طارق الإنسان ، فاقتصر تاريخه على مجده في الفتح ، وهو مجد عظيم ، دون أن يشمل تاريخه إنسانا ، وقد عوّض عليه مجده في الفتح ما فاته إنسانا ، وحسبه ما فتح عوضا مجزيا .

(١٨١) نفح الطيب (١٢/٤) .

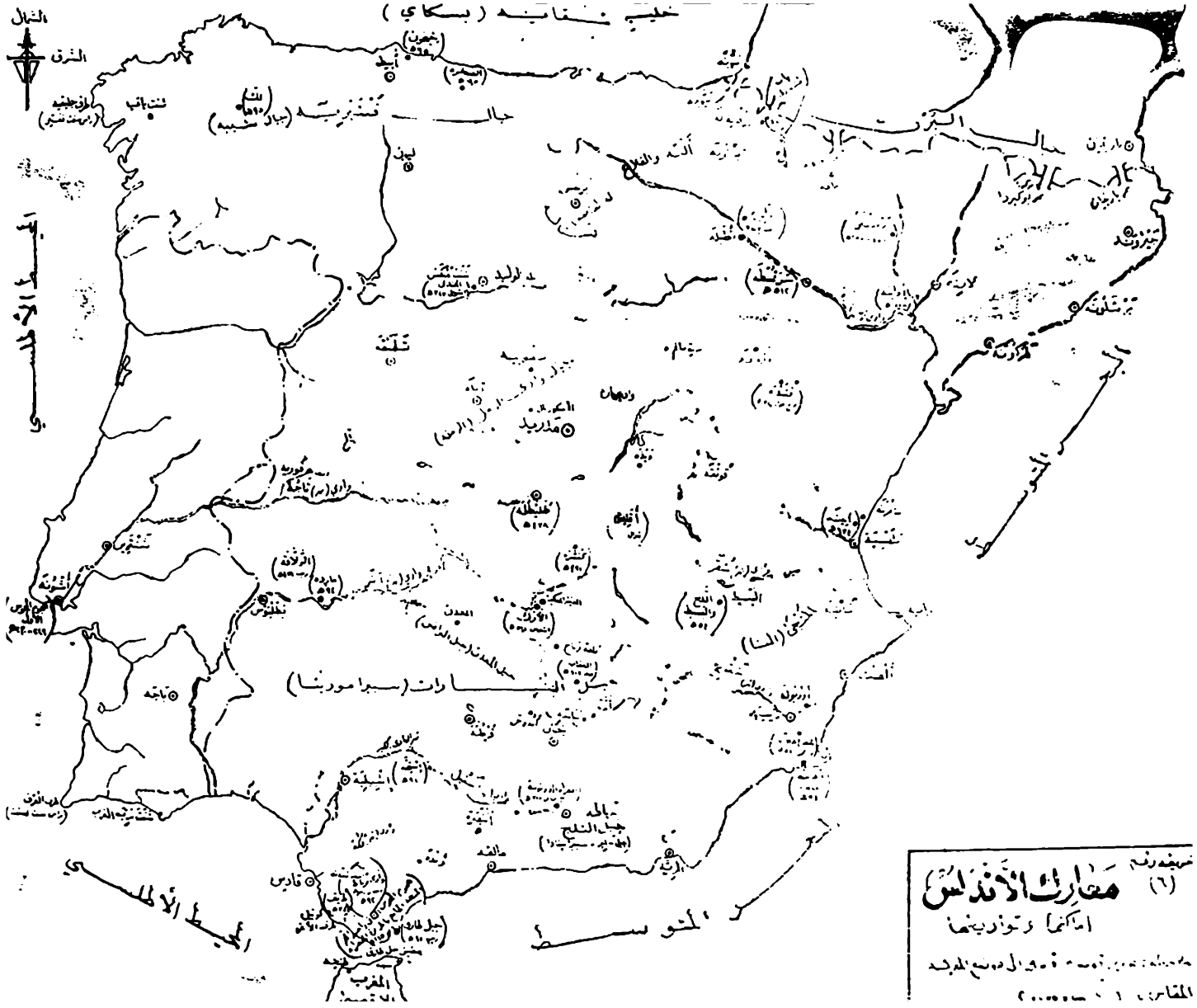

خريطة رقم (٦)

مغارب الأندلس

اسكانيا وتواريخها